

عز الدين

الصراع الفكري بين المادية والروحانية

تقديم
السيد/كمال الدين رفاع
وزير العمل



محمّد زالحسيني

الصراع الفكري بين المادية والروحانية

تقديم

السيد/كمال الدين رفعت
وزير العمل

الناشر

دار المؤلف للطباعة والنشر والتوزيع
٥٥ صلاحيه الرياض ١١٣٤٠

مقدمة

السيد / كمال الدين رفعت

وزير العمل

لم أكن أتوقع عندما قلبت أصول هذا الكتاب بين يدي أنني سوف أقبل على قراءة صحائفه بذلك القدر الكبير من الحرص والاهتمام .

والكثني عندما تأملت في العنوان الذي اختاره الكاتب لذلك البحث ، وعندما تدبرت الموضوعات التي يعالجها وجدت نفسي وقد شغفت بقراءته بتعمق وحرص شديدين .

ولقد كان أول ما استدعى مني التفكير والتأمل وبعث في نفسي خواطر كثيرة هو العبارة التي تخيرها الكاتب عنواناً لهذا البحث الجاد . فبأن كان الإنسان . . . ومنذ أن كان له عقل يدبر به شئون حياته وهو يفكر في ماهية وجوده . . . يفكر في الأصل الذي يعود إليه بجميع مظاهر وجوده . . . ولقد كان أكثر شيء جدلاً بالنسبة للفكر الانساني هو مظهر ذلك الوجود من ناحيته المادية وفوق المادية .

جار الإنسان في معرفة الأسباب كما حار في تعليل المسببات . . . لجأ إلى الخيال فلم يسعفه الخيال . . . ثم لجأ إلى الخرافات فلم تغنه من الحق شيئاً .

بحث الانسان وراء حقيقة وجوده المادي وتزاحمت في رأسه الأسئلة والاستفهامات ولكنه ظل أزماناً طويلة وهو يحبط في محور من الأوهام

والخرافات حتى شاء له القدر أن يصل إلى نتائج يرضى بها عقله وتسكن إليها نفسه . . . استيقن الانسان ان مظهر وجوده المادى يرجع إلى عناصر معينة تعود بأصلها هي الأخرى إلى عناصر الأرض التي أنبتته وأنه كان النتائج النهائية لسلالة ترجع بجذورها وحلقاتها الأولى إلى الماء والتراب وتنتهى فى تطورها بأعظم كائن على وجه الأرض ، كائن فذ عجيب له من الملكات والقدرات ما يحار هو نفسه فى تعليل أسبابها .

ثم ينظر الانسان بعد ذلك إلى مظهر وجوده غير المادى أو فوق المادى فيجد فى نفسه سرا رهيبا حول هذه المادة الصماء إلى ذلك التكوين العجيب . . . السر الذى لا يزال يحار فى معرفة أصوله وقواعده ولا يزال عاجزا عن الكشف عن أبعاده وأغواره السحيقة .

لاذ الانسان فى محاولاته لتفهم ذلك المظهر فوق المادى كما سبق أن لاذ فى محاولاته لتفهم أسرار المظهر المادى بالخيال فلم يسعفه الخيال .. لجأ إلى الأوهام والخرافات فلم ترض عنها نزعاته العقلية وملكانته الفكرية . ومضى على الإنسان حين من الدهر تتخطفه الأوهام وتتنازعه الخرافات وأبواب الحقيقة موصدة فى وجهه لا يجد لها من نافذة يطل منها على الحقيقة .

عندما وصل الانسان إلى بعض النتائج التى تفسر له مظاهر وجوده المادى واستطاع أن يتعرف على عناصر تكوينه الحيوانى ثم على القـوانين والسنن التى كانت الأساس فى عملية بناء جسده المادى فى الوقت الذى لم يستطع بعلمه المادى المحسوس أن يصل إلى مثل تلك النتائج تفسيرا لمظهر وجوده فوق المادى أنكسر فريق من الناس أن فى الانسان تلك الطبيعة الازدواجية وأنه مكون من جسد مادى وشئ آخر فوق مادى وكان ذلك راجعا إلى عجزه عن الوصول إلى نتائج علمية توضح له ماهية ذلك الوجود فوق المادى وتبين له أصوله وأبعاده وتظهر له أغواره وأعماقه . وهو فوق ذلك استطاع ان يعرف بتجربته أن مصير

ذلك المظهر المادى إلى فناء وعودة إلى الأرض التى نبت منها نباتا وعجز فى نفس الوقت عن معرفة مصير ذلك المظهر فوق المادى بعد زوال الجسد فانكر ذلك الفريق من الناس ذلك المظهر واعتنق المذهب المادى الذى ينكر على الانسان تلك الطبيعة الازدواجية .

ان كل مظاهر الوجود البشرى انما تستمد من أصل واحد هو الانسان نفسه وليست من هذه المظاهر ما ينزل عن حد الضرورة ليكون أحدها أكثر ضرورة من غيره وليس منها ما هو أقرب إلى الكماليات عن الحاجيات فان تلك المظاهر تنزل كلها منزلة واحدة وهى علاوة على ذلك فانها فى نفس الدرجة من الحقيقة فلا يمكن أن نقول ان المظهر المادى حقيقة أظهر من حقيقة المظهر فوق المادى لأننا استطعنا أن نصل بالنسبة له بأسلوبنا العلمى المادى إلى نتائج وان المظهر فوق المادى انما هى حقيقة تلى الحقيقة الأولى فى المرتبة الأولى والأهمية كما لا يجوز أن نقول بعكس ذلك لأن كلا المظهرين إنما يكونان الانسان .

ولما كانت مظاهر الوجود البشرى تذبح كلها من أصل واحد هو الانسان نفسه فانه لا يمكن أن نتصور أن يكون هناك فيما بينها تجاليد وعفاد او تصارع وعداء . لأن الشئ الواحد لا ينتج عنه مظهران متضادان وإلا كان الانسان عبارة عن مجموعة من التناقضات .

وإذا أخذنا بعض صفات الكائن البشرى مثلا نضربه للتدليل على صحة ما نقول فاننا نجد أن العلم صفة عقلية أصبحت من ضرورات المجتمع وان كان العقل وهو نبها الفياض صفة من الصفات الأصلية فى حياة الانسان الاجتماعية . . . وكذلك الدين فهو صفة تستمد مما فوق للعقلية البشرية ليسد فراغا فى الاجتماع لا يسده العلم ، وبين العلم والدين فجوة لا تسدها إلا الفلسفة . . فهذه الصفات الثلاثة . . . صفة أن الانسان يعلم وصفة أنه يتدين وصفة أنه يتفلسف ليوفى بين طرفى العقل وما فوق العقل تعتبر كلها صفات فطرية فى الانسان

أصبحت بطبيعتها ضرورة اجتماعية ولا يمكن أن يكون بينها شيء من العداء أو الصراع لأنها مستمدة كلها من شيء واحد هو الطبيعة البشرية ذاتها .

وإذا كان هذا هكذا فكيف نتصور أنه يوجد صراع بين المظهرين الأساسيين والعنصرين الكليين اللذين يتكون منهما الإنسان : عنصر المادة أو مظهر الوجود المادى وعنصر الروح أو مظهر الوجود فوق المادى . وإذا قلنا بذلك نكون قد وقعنا فى خطأ كبير ونكون قد اقررنا أن الإنسان الذى خلق فى أحسن تقويم وأسمى مراتب الدقة هو عبارة عن هيكل من القوضى المنحزكة .

لذلك كله كان أول ما استرعى منى التفكير والتأمل وبعث فى نفس الخواطر هو العبارة التى اختارها الكاتب عنواناً لهذا البحث . . . الصراع الفكرى بين المادى والروحية . . . لأن ذلك الصراع لا يمكن تصوره الا على أساس أنه من ابتداء العقل البشرى والفكر الإنسانى عندما لجأ الإنسان إلى نفسه محاولاً تعليل أسباب وجوده ومظاهر ذلك الوجود وغايات الحياة البشرية ، وعندما حاول كذلك أن يبحث لنفسه عن النظم والقوانين التى تعينه على الحياة فتقضى على أسباب شقاوانته وتدله على طريق سعادته .

ومحاولة الكاتب فى هذا البحث القيم الوصول إلى أحسن القوانين واكمل النظم البشرية التى تكفل سعادة المجتمع البشرى إنما هى محاولة تسير مع زكب الفكر الإنسانى الذى يسعى إلى إيجاد أصح الأساليب وأدق النظم التى تكفل له حياة أنسانية كريمة . . . قوانين ونظم تؤمن بالطبيعة الإزدواجية فى الكائن البشرى فتقوده إلى رفاهية الجسد وسعادة الروح . . . يسعى أن يبرر القارىء فى موضوع الكتاب ما وجدته من قيمة فكرية وفائدة موضوعية وحسن عرض وسلامة منطق وحيجة .

مقدمة المؤلف

الانسان كواقع مادي له أبعاد وحدود يشغل بها حيزاً من هذا الكون المتراحي وهناك في اعماقه كثير من الأحاسيس والمشاعر التي تكون فيه الجانب الحسي والعاطفي والغريزي وتؤثر في تفكيره وتشكل من سلوكه وتدفعه لانتهاج مناهج معينة قد تكون تعبيراً عن دوافع داخلية أو انعكاساً لمتطلبات معينة تضطرب في نفسه وتدفعه لاشباعها أو تحقيقها .

فإذا أن وجد الانسان في هذا العالم وهو في محاولات مستمرة لفهم هذا الوجود الذي يحويه وهذا العالم الذي يشرده شتته بتباين محتوياته وتغاير ظواهره وغرابة أطواره وغموض أسرارهِ فاندفع بطبيعته نهماً يلتبس المعرفة واليقين ليصل نحو استخلاص نتائج لها تساهم في تحقيق وجوده واستمراره في مساندة تلك الطبيعة الغامضة .

وبالتمعن في هذا السلوك الانساني الهادف للمعرفة واليقين والبحث والتنقيب نجد أنه في محاولات مستمرة أما من أجل المحافظة على هذا الوجود ، وأما من أجل تطويره والارتقاء بامكانياته لكي يوفر له حياة متكاملة مستقرة تكفلها السعادة والرفاهية .

وما أن كوّن الانسان تلك القيم والمفاهيم المعبرة عن السعادة والكمال التي تصبوا اليها نفسه حتى ابتدأت مراحل صراعه وشقائه ، تارة صراعه مع نفسه وغرائزه وتارة صراعه مع أخيه وكلها فترات عصبية مرت بها الانسانية وعاشت

في ألامها وأحزانها حتى جذبت اليها عقول الفلاسفة والمفكرين في محاولات كثيرة من أجل القضاء على هذا الصراع وإيجاد التلاقي بين الفئات البشرية بتباين غرائزها وميولها ومن أجل الحفاظ على هذا الوجود الانساني في حالة من الاستقرار والهدوء والحب .

وإن كان هذا الفكر ابتداءً في محاولات هي أقرب من الخيال لانتخرج عن حدود العقل المفكر ، وتعدت حواجزه وخرجت في صورة دعوة وتمجيد لتلك الحياة ، فقد كانت هناك محاولات أخرى تعدت الوجود الخيالي إلى أبعاد مادية فيها من القصور من حيث التنفيذ مما جعل دعوتها تنشبت مع مر السنين الا أن كلا من الدعوتين الخيالية والمادية كان لهما عظيم الأثر من حيث الارتقاء بالفكر والسلوك الانساني بصفة عامة وخلق استعداد لتقبل الأفكار الأكثر استجابة مع النفس البشرية وعواطفها ومتطلباتها .

وعلى صفحات هذا الكتاب سنحاول بشيء من الإيجاز أن نبسط تلك الظواهر التي تعبر عن مراحل هذا الصراع ثم ننتهي ببحثنا بالتعرض للاشتركية العربية باعتبارها منهجاً يستهدف الانسان ويمجد وجوده ويحترم غرائزه ويوفق بين سلوكه ويقوده إلى حياة كريمة

ونسأل الله التوفيق . ، ، ،

م . أول بحري
محرز محمود الحسيني

مظاهر الوجود الانساني

ظل الانسان يكافح ويسعى جاهدا في محاولات مستمرة نحو اخضاع قوى الطبيعة وتسخيرها من أجل استكمال مظاهر وجوده وتحقيق سعادته وكماله لكي يضمن على حياته مستلزمات القوة والنظام والاستقرار .

وهذا الطموح إلى اجتياز حدود الامكان ، وهذا النزوع إلى استكشاف وتسخير ما وراء الواقع الملموس يعود على الانسان بالمتاعب والصعاب ، ويعرضه لألوان متباينة للصراع تارة مع الطبيعة وأخرى مع نفسه وهو بينها حائر يتخبط ويصطدم بالواقع الأليم .

وأى معنى للحياة لا يرفرف في سمائها مثل عليا وقيم سامية اخلاقية يهتدى بها الانسان في واقعه المضطرب وينظم سلوكه وتضيق له جوانب طريقه المظلم وتصبح له نبراسا يهديه إلى ما يحقق وجوده من خلال السلوك الانساني عامة .

ومما لا شك فيه أن مظاهر الوجود الانساني ماهي الا تلك الدلائل التي تشير إلى أسلوب الفئات البشرية في الحياة والمناهج التي تسير على منوالها من أجل تمكين الانسان من تحديد مكانه في هذا الوجود وموقفه ازاء أوضاع الحياة المتباينة بصورها وأفكارها ومذاهبها وذلك من حيث ايجابية سلوكه أو سلبيةه .

ومنذ الخليقة الأولى والانسان في صراع دائم وتفكير عميق ومحاولات مستمرة من أجل استنباط نتائج معينة واستدلالات خاصة لتطورات متباينة

المجالات والصور .

فالوجود الانساني من حيث المظاهر التي تشكله وتعطيه الصورة المادية والروحية تتجه بصفة مستمرة نحو التطور الجزئي والكلي، والتاريخ البشرى مملوء بظواهر متعددة وآثار بالغة تشير بمضمونها إلى هذا التطور وتؤكد حقيقة واضحة من حيث انقراض كثير من الماديات والمخلوقات التي صاحبت هذا الوجود لعدم تمكنها من مسايرة هذا التطور والتوافق مع مستلزماته والخضوع لقوانينه الحتمية من حيث التطور والارتقاء .

والسجل التاريخي للبشرية على مر السنين والقرون يحوى على استدلالات للرقى البشرى والتطور الطبيعى ، فالانسان عبر تلك السنين والمراحل يسخر عقله واحساساته من أجل تحقيق ذاته وإثبات وجوده وقدرته على مسايرة هذا التطور الحتمى الطبيعى ويمر خلال تجارب متعددة لاشيء إلا لتعليل ظواهره والمضمون الحقيقى لذاته البشرية .

وبالاسترسال فى بحث هذا التطور وبالتمعن فى مكنونه نجد أنه يستند على أسس طبيعية ومستلزمات ضرورية ، بل أكثر من هذا يكون التطور هو أمر حتمى ومفروض علينا ومن يقف أمامه ويتعرض له أما أن يلحق به الجمود والسلبية وأما أن ينتهى إلى ما انتهت إليه تلك المخلوقات الأولى التى آلت إلى الانقراض والفناء على أثر اخفاقها فى متابعة سنة هذا التطور وتكييف وجودها لتلائم تلك الحياة المتجددة والمتطورة بصفة دائمة .

وبالتمعن فى الوجود الانسانى وتعليل ظواهره المتعددة بمنطق فلسفى نجد أن هذا قد يؤدى بنا إلى التطلع والسعى وراء المعرفة الحقة وكشف كل ما هو غامض مستتر ثم المحاولة لربط ما بين ظواهره المختلفة حتى تتحقق لنا صورة متكاملة شفافه واضحة وتتلور معالمها لتسهل على العقول تداركها ويتسنى للانسان الاستجابة لقوانينها والتفاعل معها بصورة ايجابية .

فالإنسان في صراع ونضال مستمر يسعى بجهد لا يجتاز طرق أشائكة وبغرة تحفها المتاعب وتحيط بها الصعاب وتعترضها العقبات، وغاية تلك الجهد، وهذا العناء، هي أصمارة للمخاطفة على وجوده ولضمان استمراره بالصورة التي تتلاءم واستعداداته وميوله ومطالبه

ثم ماذا حدث عقت ذلك ؟ ؟ ما لبثت تلك المعالم الوجود الانساني أن وضحت وتكشفت له وأطمأن إلى ثبات حقه في الحياة حتى أخذت تتجول في أعماقه تساءلات فتجرف به عن طريق الاستقرار والهدوء والقيوع إلى طريق الألم والصراع النفسي والاضطراب الوجداني أخذ يتساءل ويبحث عن وجوده الذاتي، والوسائل التي من شأنها السمو بمظهر وجوده . . . ثم ما لبثت تساءلات أخرى تضطرب في أعماقه بالتالي، ماذا يعني وجوده وما هو السر من ورائه . . . ماهي المصادر التي تنبثق على أثرها ما يولد في نفسه الحزن والشقاء والألم — ماهو مضمون الخير والشر ماهي الوسائل التي تحرره من تلك الآلام وتقوده إلى آفاق نقاء النفس وشفاء الجسد . وأخيراً ماهي المعايير التي يستند إليها في معايرة سعادته ويجعلها غاية يسعى إليها وينشدها من خلال وجوده .

تلك الأسئلة طالما رددتها الانسانية حتى تخصص لها الفلاسفة والمفكرون على مر السنين والأجيال لكي يتمكنوا من الوصول إلى مكنونها وعلاقتها وأن يهتدوا إلى السبل التي تقودهم إلى خلق تلك المفاهيم وإيجاد الحلول التي تشفي لنفوس أمم تلك التساءلات وتمكن الانسانية عامة من أن تحقق وجودها الخالد تبعث الأطمئنان والاستقرار في النفوس المضطربة .

وتعددت تبعاً لذلك مناهج التفكير للوصول إلى معرفة الحقيقة، خلاصتها لبشرية في محاولات للتقرب من متطلباتها واحتياجاتها المادية والروحية وليكن عبر من خلالها عن حقيقة خلجاتها والعوامل التي تؤثر في وجودها العظيمة

والخاصة ، فتارة تسمو إلى أبعاد المثالية والخيالية ثم تصدم بحقائق لا تفسر لها فتحاول أن تتسلل نحوها مرة أخرى بأساليب هي أقرب للواقع من الخيال . . منهج يعتمد على الحقائق في هيكل فروض عقلية ونظرية نابعة من وراء العقل ثم يهتدى إلى المنهج العلمى التابع من وراء التجربة والحوادث المتعاقبة التي تقوده إلى حقيقة الوجود الانساني .

وقد أخذ الإنسان بعد ذلك يبحث من وراء مناهج التفكير التي هي في حد ذاتها عبارة عن محاولات تنتهج من أجل ازالة الغموض الذي يلبس مفهوم الظواهر والآراء المتنوعة والمبادئ والنظم والأهداف المتباينة في أذهان الفئات البشرية ، كما وانها تلي الضوء الذي يبين الطريق إلى المعرفة بمجالاتها المختلفة التي تتصل بحياة الانسان في كل مكان وزمان .

ومن ثم فنماهج التفكير في مضمونها عن تلك النزعة الانسانية من حيث تطلعيها نحو الكشف عن الحقائق بصرف النظر عما يحتمل من آثار تترتب على كشفها سواء من حيث تحقيق مطالب الحياة العملية أو مجرد اشباع لمقتضيات الحياة الروحية ، أى أنها التماس للمعرفة غايتها الكشف عن الاستدلالات التي تقسمها وتؤكد وجودها .

ومنهجها يتدرج إلى ثلاثة اركان :

- أ — مناهج مثالية
- ب — مناهج نظرية
- ج — مناهج علمية (تحليلية)

وكما في حد ذاتها عبارة عن مسميات اصطلاحية الغاية منها الاستدلال على كل منهج بمدلوله ومدى ارتباطه بالواقع الانساني ومطلباته الأساسية .

أ - المنهج المثالي :

وهو الذى اصطلح على تسميته كافة الأفكار أو الأعمال أو العمليات التي

يستهدف صاحبها تقديم حل أو تصوير لقضية من قضايا المجتمعات .

وينبثق هذا التفكير اثر احاطة المفكر بظروف معينة يتأثر بها وتلاعب بعواطفه وتحرك مشاعره فيحاول أن يتصور حلولاً متعددة تبدأ بأن يضع لها هيكلًا في مفهومه الذاتى التابع من عقيدته الذاتية ووفقا لوجهة نظره من حيث الأبعاد والمدى الذى يجب أن تكون عليه تلك الأوضاع والظروف .

وعليه فلا يبدأ الفيلسوف من واقع التجربة وإنما بمدى تأثيره العاطفى البحت الذى يولد فى نفسه إحساسا بأن هذا المنهج هو الحل المثالى الذى يجب أن تنتهجه تلك الجموع وبالتالي نستدل على انه ليس هناك أى نظام مثالى أو منهج للتفكير بعد متكاملا لأنه ينبع من داخل الذات الفردية ويتخذ وضعه المثالى من وجهة نظر المفكر فحسب وبناء على مدى تأثير عواطفه ومدى ارتباطه وجدانيا بالبيئة الحاوية له .

ومن ثم فلا يخفى ان هذا النمط من التفكير لا يهتم بالمدى الذى يستجيب به للفرائز الانسانية المتباينة ومتطلباتها المتضاربة وبالتالي على مدى قدرته لمخلاق التفاعل والاستقرار بين الفئات البشرية فكل هذه المسائل لا يضعها المفكر فى اعتباره وإنما يقدم تلك الحلول التى تأتى على هذا النمط ، خيالية بحتة غير قادرة على الصمود أمام الصراع الإنسانى بكونها بمنأى عن الواقع .

ب - المنهج النظرى :

وهو المنهج المعبر عن التفكير بالعمليات العقلية التى يقصدها الكشف عن ظاهرة معينة ، وتبدأ من فرض عقلى بحت ، يقتنع بصحته باعتباره يمثل الحقيقة وعن طريق الانتقال من فرض إلى فرض يمكنه البرهنة بصحة هذا المنطوق .

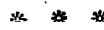
وعليه فهذا المنهج لم يبدأ من الواقع وإنما يبدأ بمنطوق لنظرية معينة فى مجال الحقيقة وبفكرة من المجال المحسوس ويستتبع ذلك فروض تعقبها أخرى تعتمد على الطريقة النظرية والرسومات حتى تنتهى إلى صياغة برهان ثابت لها ،

وتكون مدى صحة هذا الفرص ومدى تمثيله عن طريق مجموعة من الفروض العقلية البحتة ثم الانتقال من فرض عقلي لآخر إلى أن يصل إلى الاستدلالات بصحة البرهان ويجعل منه منطوقا للنظرية .

ج - المنهج العلمي :

وفيه يرتكز المفكر لاستخلاص نظرياته وأفكاره من خلال احتكاكه بواقع التجربة واستنتاجاته من خلال المشاهدات والحوادث .

وهذا المنهج في التفكير هو في الغالب ما يجد استجابة من قبل الفئات البشرية حيث أنها بصفة لاشعورية تنجذب نحو ما يثير في نفوسها من غرائز وميول متطلعة لمعرفة بمكنون الأمور وكشف كل ما هو غامض منها والوقوف على حقائق الموجودات والظواهر المعقدة وذلك عن طريق تتبع ظواهرها المتغيرة .



وهكذا بعد أن استدلنا على مناهج التفكير السابقة الذكر نجد أننا في الواقع أمام ثلاثة مناهج لا يمكن أن نجد بينها نفقات أو حدود ، وإنما كلاها يرتبط بالآخر بعلاقة أو أكثر :

ولو تتبعنا المنهج المثالي من حيث كونه يعبر عن أعلا مراتب التفكير وأكثرها كمالا وتذسقا لوجدنا استجابة له وتفاعلا معه حتى ولو بصورة نظرية بعيدة عن الواقع إلا أنها ستترك بعض الآثار من حيث تنمية احساسات الانسان والارتقاء بمشاعره ووجدانه والوصول بها إلى آفاق تمكنه من تقييم كل ما هو كامل متناسق .

وإذا ما انتقلنا إلى المنهج النظري نجد أنه يقود العقل الإنساني ويهديه إلى أسس المعرفة الصحيحة المتقدمة حتى وإن سلك المنهج العملي واستند على

التجارب والملاحظات بحثا وراء هذا المنطوق وأثبتت صحته فقد يصل إلى أسمى الغايات وأنبلها .

وهكذا فإذا ما جمعت الإنسانية مراحل السكال غاية تصبو إليها النفوس وتوجه نحوها الطاقات والقدرات فإن اخفقت الإنسانية في الوصول إليها فإنها ولا شك ستقودها إلى درجات قريبة منها .

وهذا السلوك الفكرى التجريبي لا يكون بالطبع قاصرا على ظاهرة معينة من ظواهر الوجود البشرى وإنما يمكن اتباعه عند تقييم كافة مظاهر الوجود الانسانى .

فالإنسان موجود وهذه الحقيقة لا يستطيع العقل البشرى أن يشكر لها أو يقلل منها وهذا الوجود من خلال اطار الفكر البشرى يتمثل فى صورتين احدهما لها الواقع المادى المحسوس والأخرى لها واقع روحى والذى يمكن أن يتوصل له الانسان عن طريق استنباطات معينة من خلال وجوده وكيانه وذاته .

ومن حيث الجانب المادى فهناك عدة حواس تربط ما بين الوجود وانعكاس الظواهر الطبيعية والمادية المحيطة به - فإذا ما كان هناك أى احتكاك بينهما تولدت عدة انفعالات متباينة محسوسة تنتقل جميعها وبالتالي إلى مركز العقل والإدراك والتفهم فى الجسم ، ليعيد صياغتها وتصويرها إلى مظاهر مادية بيولوجية يمكن أن ينفع بها هذا الكائن المادى وتنعكس آثارها بالتالى أيضا بسلوك خاص له مميزاته ومعاله بحيث يصبح لكل تأثير مادى سلوك معين يعبر عنه بشكل ما .

فالإنسان من حيث وجوده الذاتى يعيش فى كون غريب لانسانى إذا ما توصل لأبعاد حقيقته المعينة اتضح له أبعاد أخرى مترامية لحقائق يعجز عن الوصول إلى مكنونها بسهولة فاما ان يأخذها على علتها وإما أن يقف على تفسير

جزئى لها لا يشفى محتواه كل انفعالاته وتساؤلاته التى تضطرب فى أعماقه - واما ان يكتبى ويستسلم للانعكاسات المختلفة التى يتأثر بها تلقائيا عند احتكاكه بظاهرة من ظواهرها المادية .

اما الجانب الروحى فى الانسان فله طبيعته الخاصة حيث انه يستند على استعدادات فطرية ومكونات عضوية وقد تكون استجابته شعورية ولا شعورية من حيث مدى تأثره بتلك الظواهر التى تحيط به ، وكذلك على مدى تأثره بحاسة الإدراك العقلى والأبعاد التى يتوصل بها إلى استنباط تعليقات مباشرة لها .

ومن هنا يتضح لنا ظاهرة من حيث كون العقل هو المحرك الأول الذى يثير كلا من الجانبين المادى والروحى وكسبيل للمعرفة ووسيلة يعبر بها الانسان عن قلقه الدائم من حيث تلك التساؤلات والانفعالات التى تجول فى أعماقه منذ الخليقة حتى يومنا هذا .

وبالتحقق فى تلك الظاهرة نجد أنها قد توحى لنا بمعان كثيرة وذلك انه كلما ارتقى العقل البشرى وتفتحت آفاقه وازدادت معارفه كلما تباعدت حدود المعرفة وازدادت تطالعات ومجالات بحوثه ، وهذا ما يؤدى إلى ازدياد شعور الإنسان بالقصور والألم وازدياد اضطراباته وانفعالاته النفسية حتى يغدو انسانا تائها لا يجد لأفكاره مستقرا ولا لزعاته هاديا أو منتهى .

ومن هنا ابداً الإنسان فى وضع مفاهيم وغايات يسلك نحوها باحساساته ويوجه سلوكه نحوها لعمله يهتدى للوصول اليها والأحاساس بها ! وهكذا أخذت البشرية فى اثبات وجودها عن طريق بعض القيم والمفاهيم والمعايير التى تعبر فى مضمونها عن ذاتها وتنبثق عن الكيان الإنسانى ، وقد تتفاوت تلك القيم فيما بينها تبعاً لمدى ارتباطها بحياته ووجوده الإنسانى ومصالحه العامة والخاصة .

وما لاشك فيه أن المجتمعات الإنسانية قد تتفاوت فيما بينها تبعاً لما تعلقو فى

سمائها من قيم ومفاهيم وتبعاً لمدى تفسيرها لها ومدى التفاعل معها والاستجابة لبنودها وحقائقها وكذلك عما إذا كانت تلك القيم والمفاهيم تتعلق بالجانب الروحي أو المادى للانسانية عامة .

ومن خلال تلك الأحاسيس التى صارت تجول فى أعماق البشرية وتشيع فى حياتها نوعاً من القلق سواء كان فى نطاق الوجود أو نحو ابعاد المستقبل فصار يتساءل عن غاية هذا الوجود ومن الآفاق التى يمكن ان يتوصل اليها، يؤثر فيها ويتأثر بمظاهرها فأخذ بالتالى يستدل على تلك المظاهر من خلال عمله وحر كته وتفكيره وفقاً لأستعداداته الفطرية من حيث ميوله التلقائية لتفهم الأمور التى هى أقرب لمتناوله ويسهل الشعور بها عن طريق الحواس المختلفة الموجودة فى الذات الانسانية . . .

وإذا ما انطلق الانسان لوضع معالم ثابتة لغاية وجوده فعليه أن يعتمد للفحص والتمحيض والبحث والأستقراء إلى أن يدرك ظواهر معيشتة القائمة .

وهذا بالتالى يرتكز على مدى مقدرة التفهم والتبصر والأحاساس من خلال واقعه المادى وبما يحيط به وبسيطرة عقله على دوافع الحس وتزواته .

والانسان منذ وجوده يسعى لتفهم الجانب الروحي والجانب المادى فى حياته وكلاهما يسيران جنباً إلى جنب لا ينفصلان ويكونان معاً كلا متكاملين يعبر عن حقيقة وجوده فإذا ما اتجه التفكير لوضع مفاهيم وقيم معينة فيجب أن تكون فى مضمونها نافذة إلى داخل النفس البشرية وتشبع كلا من الجانبين وتحقق مطالبها ، بحيث إذا ما كان هناك تناقض فى الفكر وانبتقت تلك المفاهيم تبحت وراء واقع منها دون الآخر فلاشك انه سيكون لتلك القيم والمفاهيم والغايات من القصور ما يؤدى بالتالى إلى اشباع جانب دون الآخر مما يترتب عليه اضطراب فى الغايات والسلوك فى نطاق الحياة الانسانية .

وعليه فإذا ما اتجهت البشرية نحو وضع قيم ومعايير لها تستهدفها فى حياتها

فيمجب أن يكون هناك تقدير لكل من الجانبين الروحي والمادى حتى يكون هناك التلازم الفعال بين الفكر والروح والسلوك والواقع.

وبالاسترسال في بحث ظاهرة الوجود الأنسانى وغايته فلا مفر من الاصطدام بعدة تساؤلات عما إذا كان الإنسان قد وجد في تلك الحياة ليتعذب ويشقى أم أنه قد وجد ليعيش حياة فاضلة وسعيدة متكاملة — فتلك الظاهرة قد جذبت إليها عقول الفلاسفة ووجهت نحوها أفكارهم ووجداناتهم يبحثون وراء تفسيرها ووضع معايير لها وفلسفة ثابتة تقترن بها ، تريد النفوس أن تهتدى إلى معالم الوجود من خلال السعادة والألم وتحدد أبعاد وجودها لتحقيق الاستقرار الروحي والمادى .

فالآلم كظاهرة من الظواهر الانسانية تعتبر في نظر الفلاسفة ذات وجهين الجانب الأول هو تحليل تلك الظاهرة وإدراك حقيقتها ومسبباتها ، والجانب الثانى هو كيفية الاهتداء إلى طريقة التحرر والتغلب عليها والتخلص من آثارها ومسبباتها .

ومما لا شك فيه أنه ليس هناك مجال لأنكار الآثار اللاحقة للتطور والتقدم العلمى وازدهار تطبيقاته وإشعاع تأثيره المحسوس فى نطاق البيئات الاجتماعية من حيث السمو بالحياة الانسانية والعمل على توفير كافة متطلباتها ومستلزمات الحياة المتكاملة المتقدمة ولكن هناك جانب لا يمكن أن نتغاضى عنه أيضا ألا وهو ذلك الجانب النفسى من الانسان وتلك النزعات التى قد تسبب له بعض الآلام والاضطرابات المتبينة .

فإذا ما فرض أن التطور أخذ يسير فى مجراه اللانهاى وأنه يسير قدما للأمام بخطوات متسعة نحو الازدهار والكمال حتى يكاد أن يصل إلى سدرة المنتهى ، وتصور كذلك أن الانسانية قد تمكنت من تحقيق الرفاهية والكمال من حيث مظاهر الاستمتاع بلذات الحياة بتباين فروعها ومستوياتها — فنقف هنا

لنساء هل ستكتفى البشرية على هذا النجو وتستقر نفوسها وعواطفها وتهدأ أنفعالاتها الروحية والمادية وهل سينتهى طموحها وتكتفى بما وصلت اليه من اسباب اللذة والكمال حتى تتمكن من القضاء على مظاهر الألم والاضطراب ؟

لاريب أن ذلك يدعو إلى التشكك وعدم الاقتناع والأستسلام ، فالإنسان فى طموح دائم مستمر وتمتد أبعاد آفاقه إلى ما لانهاية — فكلما يصل إلى مستوى معين تطلع إلى مستويات أخرى تعلوها وأكثر تعقيدا منها تحتاج إلى طاقات أكثر ومجهودات أشق من أجل الوصول إلى تحقيقها . كما وأنه كلما بلغ الانسان الى درجة من درجات التقدم والرقى تطلع الى حياة أرقى وأسمى من واقعة المادى الحالى . . .

وهكذا لايقف الانسان عند حد حتى ولو أعطاه الخالق كل مايرتضى ويتطلع اليه ويرجوه فى حياته ، ولن يكتفى حتى ولو أعطاه الله من الصحة والجمال والقوة والخير ووسائل الرفاهية فانه سينقاد لصوت ينبعث من أعماقه ويلج عليه بالمزيد ويطلب الأكثر ويتطلع إلى مستويات ومطالب أخرى . . . وهكذا فالإنسان بتباين مستوياته وامكانياته فى صراع دائم تارة مع الحرمان والشقاء وتارة مع قلق نفسه الطامعة المضطربة .

ولو تتبعنا تلك الظاهرة لوقفنا على حقيقة بواعثها ومسبباتها وعلاتها الأساسية وذلك من حيث عدم وجود معايير ثابتة ومقاييس يمكن أن تقاس بها درجات الكمال ومعانى السعادة ومظاهر الحياة الإنسانية ، كما وأنه ليس هناك مثل عليا متكاملة اذا ما وصل اليها الانسان قنع بها واستقرت أعماقه وهدأت شهواته وانتهت عندها آفاق آماله وتطلعاته .

فالإنسان فى فراغ دائم، وهذا الفراغ الذى يتسع من وراء تلك التطلعات اللامحدودة كثيرا ما يؤدى إلى ما يسمى شقاء وآلام الفراغ، وذلك لأنه ليس هناك معنى للحياة دون أن تتوفر لها المثل العليا الثابتة المتكاملة نسبيا ، والقيم التى تحد

من تطلعات الإنسان اللانهاية وتنظم سلوكه البشرى المضطرب في نطاق المجتمع الواحد .

وهن ثم فتحرر الانسان من هذا الفراغ وتقربه إلى المثل العليا المتكاملة جعله يقتربنا ويقتربنا بالمعرفة التي هي السبيل الوحيد القادر على هداية النفس واضاءة جوانب طريق الانسان الذي احاله الفراغ إلى درب طويل مظلم كثير العثرات والعجوات يقود عابره نحو العدم والانهيار والمناهة . . .

والمعرفة في حد ذاتها هي أكبر مهين للانسانية عامة لما لها من آثار بالغة خالدة . . فتكشف عن أعماق النفس وتفضح خباياها وتباور ما يمكن بها من مثل عليا واستعدادات سامية للانطلاق نحو غايات كريمة ، وعن طريق المعرفة تترفع قيمة النفس البشرية وتجعلها تسمو على آفاق السلوك الانساني بغاياته الكريمة . . وهكذا فالمعرفة لديها من القدرات والإمكانات ما تمكن الانسان من التوفيق بين الادراك العقلي والاحساسات والشعور العاطفي الاخلاقي وتجعل هناك التماسا وتآلفا ما بين المعرفة والحكمة وبين الادراك وحاسة الجمال والسلوك الذي هو مجرد انعكاس لتلك التأثيرات وتلك الاحاسيس والتذوق والتقدير .

السلوك الانساني

بمتابعة مظاهر السلوك الانساني خلال البيئات الاجتماعية فاننا قد نقف أمام عدة مظاهر ومؤثرات وقفة حائرة من حيث السلوك الذي خضع للدوافع الفطرية التي تدفع الانسان لكي يسلك سلوكا غريزيا وهذا السلوك هو مجرد انعكاس لمؤثرات نابعة من البيئة المحيطة به بحيث تشكل له الحدود والابعاد وكذلك الوسيلة التي ينتهجها الفرد نحو قضاء حاجته - وربما كان هناك تأثير مزدوج ما بين الدوافع الغريزية والمؤثرات المحيطة بحيث تعطى تميزا خاصا للسلوك الفردي خلال المجتمع الحارى له .

والانسان منذ أول وجوده يتأثر بما حوله ويتكيف لمعاملة من يجاوره وقد اتجه بعض علماء النفس إلى الإجماع على أن الغايات الحيوية عند الإنسان هي ثلاث :

١ — المحافظة على الفرد

٢ — المحافظة على النوع

٣ — المحافظة على الجماعة

وبملاحظة السلوك الإنساني خلال البيئة الاجتماعية الحاوية له نجد أن هذا السلوك القطري قد يكون معبراً في مضمونه عن دوافع داخلية ومؤثرات ثابتة في النفس البشرية .

والتي نقف على حقيقة هذا السلوك الذي يتهجه الفرد بحجب أن نقف على حقيقة الدوافع والبواعث التي تحرك الإنسان تجاه سلوك معين :

فالبواعث : هي دوافع خارجية

والدوافع : هي الشعور أو الإحساس الداخلى الذى يهيم الفرد لسلوك معين أو للوصول إلى أهداف معينة . فهى إما أن تكون :

أ — دوافع أو حاجات عضوية وهى فطرية

ب — دوافع اجتماعية نفسية

ج — ميول واتجاهات

والإنسان يعمل جاهدا ليس من أجل تحقيق أو إشباع رغبة واحدة وإنما نحو إشباع عدة دوافع ورغبات تسيطر عليه وتدفعه لانتهاج سلوك معين .

* * *

الضوابط الحاكمة للسلوك القريزى :

الإنسان من حيث أنه موجود فله الحق فى الحركة والتخاطب والتعامل

والعمل والسعى من وراء توافر سبل معيشته لتكوين حياة متكاملة وكذلك نحو إقامة علاقات عامة تساهم في تكامل مظاهر حياته ووجوده — كذلك له الحرية في انتهاج السلوك الذى يحقق له الاستمرار وأمتلاك موارده وامكانياته التى يدير بها شئون حياته وينظمها — كذلك له الحق فى ان يعتنق العقيدة التى يشعر فى اعتناقها بالاستقرار والصفاء الروحى — كذلك له الحق فى الانتقال سعيًا وراء الموارد اللازمة له .

وبحثنا هذا ليس وراء الاستقصاء عن الحقوق الطبيعية للانسان وإنما وراء ذلك السلوك الذى ينهجه لقضاء حاجته ، فيجب أن يكون هذا السلوك قائما على ادراك واع للحقائق العلمية التى تدنوبه نحو الكيان الانسانى وتنأى به عن السلوك الحيوانى القاصر على الانتقال بالواقع المادى دون التفهم والتعقل فى الموجودات ثم التسامى والفكر والغرائز نحو ايجادها . فيجب على الانسان إلا يتقيد ويعتمد على مجرد الاحساسات فى استخلاص جواهر الموجودات لأنها قد تكون خاطئة وفاسدة . ومن هنا نتحتم أن يكون هناك التبحر ما بين الحواس والفكر لكى يتمكن من استنباط آراء صحيحة واستنتاجات موفقة صالحة ترتبط بالواقع المادى وفى نفس الوقت تقترب من الفضائل والقيم الأخلاقية السامية وعندما تكون للتجربة هى مصدر لاستنباط الفكر فيجب أن يكون هناك توفيق ما بين الواقع المادى والمثالية الجوهرية والمعايير المتفق عليها والتى تكون قائمة على أركان وأسس قدسية تنعكس اشعاعاتها على السلوك الإنسانى وتباركه خلال البيئة الاجتماعية الحاوية له .

ومما لاشك فيه أن السلوك الاخلاقى الهادف إلى تنظيم الحياة الانسانية والتوفيق بين العلاقات المتداولة لتنظيم منهج الحياة الاجتماعية يجب أن يستهدف جواهر سامية لوجودها المادى من حيث السمو بالغرائز الانسانية وتنقية النفوس البشرية من أدران الرزائل والشرور والأنانية .

ولارب أن لم تكن الفضيلة والقيم الاخلاقية والمثل الانسانية ذات وجود مادى وتتغلغل جذورها فى أعماق النفوس البشرية فأنها ستصبح ولاشك مجرد

نظريات هشة وأقوال عابرة لاستحققات الالتفات إليها أو الاهتداء بعضها
المشرق أو الاصغاء إلى مضمونها وغايتها النبيلة التي هي الأساس لقيام المجتمعات
الفاضلة

وعليه فيجب أن يكون هناك كيان ثابت راسخ الجذور للخير والصالح
العام بحيث يكون في صورة شفافة واضحة تسهل على العقول تداركها والتفاعل
معه حتى يتيسر إيجاد خلق الحلول المتباينة الموفقة لكثير من المشاكل الاجتماعية
المعقدة وتتمكن من إيجاد الضوابط الحاكمة لسلوكها الاجتماعي الذي يقترب بنا
بقدر الإمكان من جوهر الفضيلة السامية .

الغرائز الانسانية العامة :

فأنا ما تأملنا مجموعة الغرائز التي تتحكم في السلوك الانساني بصفة عامة نجد
أنها لا تخرج عن ثلاث مجموعات كبرى أو غرائز عامة من حيث :

أ — غريزة الذات

ب — غريزة الاجتماع

ج — غريزة الجنسية

وعند دراسة السلوك الانساني بصفة عامة نجد أنه لا يخرج عن نطاق تلك
الغرائز الأساسية الفطرية التي صاحبت الوجود الانساني منذ القدم .

وقد عرف « مكندوجل » الغريزة بأنها استعداد عصبي قسائي يجعل
صاحبه يذنبه إلى مؤثرات من نوع خاص، ويدركها ادراكا حسيا ويشعر بانفعال
من نوع خاص عند ادراجها ويسلك نحوها مسلكا خاصا أو على الأقل يشعر
بذعة لأن يسلك نحوها هذا السلوك (١)

(١) علم النفس «الدكتور عبد العزيز القوصي»

وقد تعرض «مكدوجل» في مؤلفه «مقدمة علم النفس الاجتماعي» لأهم الغرائز البشرية المعروفة ومجموعها اثنا عشرة غريزة عرفها جميعا في النهاية بغريزة الحياة أو غريزة حب البقاء وهي :

- | | |
|-----------------------------|-----------------------|
| ١ — غريزة الهروب | ٧ — غريزة الطعام |
| ٢ — غريزة الهجوم | ٨ — غريزة الاقتناء |
| ٣ — غريزة النفور | ٩ — غريزة الانشاء |
| ٤ — غريزة حب الاستطلاع | ١٠ — غريزة التناسل |
| ٥ — غريزة الاهتداد بالذات | ١١ — الغريزة الوالدية |
| ٦ — غريزة الخضوع أو التسليم | ١٢ — غريزة الاجتماع |

وتلك الغرائز البشرية لها من المميزات والصفات الثابتة التي تقترن بالوجود الانساني اينما كان ذلك من حيث :

أولا : الفطرية : أي انها غير مكتسبة ولو أنها قابلة للتعديل

ثانيا : العموم في النوعية وذلك من حيث وجودها في جميع أفراد النوع الواحد بدون استثناء أو تمييز الأنواع عن بعضها .

ثالثا : الثبات أي أنها ثابتة لا يمكن استئصالها بعكس الاستعدادات المكتسبة التي يمكن زوالها بزوال المؤثر المسبب لها . أو الأمكان بتبديلها بغيرها ولو أنها تختلف في الدرجات اختلافا متباينا .

رابعا : الظهور على مراحل تكاد تكون ثابتة.

خامسا : وجود مظاهر الشعور الثلاثة واضحة في كل منها في حالة قيام الكائن الحي بسلوكه الغريزي .

سادسا : تميز كل غريزة بانفعال خاص ومصاحب لها

سابعاً : القيمة الحيوية وذلك لما يترتب عنها من وظائف حيوية بالنسبة للكائن الحي أثر النشاط الغريزي .

ومن هنا فعند دراسة الطبيعة البشرية يستلزم علينا أن نتبع أثر تلك الغرائز في تحديد أبعاد السلوك الانساني من حيث كونه انعكاساً لحياته النفسية وتعبيراً عما يدور في أعماقه من احساسات وخواطر . وطالما أن السلوك هو انعكاس مباشر للغرائز والدوافع والآثار الوجدانية النابعة من صميم النفس البشرية فبحثنا هذا يتطلب وقفة سريعة لتمييز السلوك الانساني من حيث كونه :

أولاً : سلوكاً فطرياً (غريزياً - طبيعياً)

ثانياً : سلوكاً مكتسباً

أولاً : السلوك الفطري :

ولاشك أنه قد يفيدنا بحثنا هذا نحو فهم طبيعة السلوك الإنساني أن ندرك ما إذا كان الانسان يسلك سلوكاً نتيجة انطباعة بمؤثرات البيئة المحيطة به أم نتيجة عوامل فطرية كامنة في داخله أم لامتزاجهما معاً .

هذا ولا يخفى أن ما يفرق الانسان والحيوان أن الأول ينقاد وراء تفكيره وارادته وعقله بحيث يتحكم في سلوكه ، والسلوك الفطري عند الانسان إما أن يكون سلوكاً يعبر عن أفعال منهكسة أو رد فعل لمؤثرات خارجية تنتهي بزوال المؤثر الخارجى وتسمى بالافعال المنعكسة والتي تتم دون أن يكون هناك أثر للانفعال .

أما الفعل الغريزي فيصاحبه الشعور بمظاهره الثلاثة من حيث الإدراك وفيه الوجدان أو الانفعال وفيه النزوع أو الرغبة أو الاندفاع .

وعليه فالفعل الغريزي يكون مقترناً بالمعرفة أو الإدراك والغالب أن تكون الفطرة مجرد استعداد يشترك فيه الافراد حيث تدفعهم للقيام بسلوك معين إذا

ما توفرت شروط يرتبط بعضها بالموقف والبعض الآخر بالكائن نفسه وهكذا نستدل على أن السلوك القطري الغريزي قد يكون سلوكا مباشرا تلقائيا واما أن يكون سلوكا غريزيا معدلا تتحكم فيه الناحية الادراكية في النفس البشرية.

وعلى أثر اندماج الانسان في البيئة الحاوية له يتضح أثر تلك البيئة من حيث تقوية ذلك الاستعداد أو اضعافه وكما أنها تسمح له بالظهور في الحدود والأبعاد التي تضعها له ، وأصبحت لدى البعض ميول وعواطف مكتسبة تدور حول محاور أساسية في التكوين الاجتماعي من حيث الخير والحق والجمال .

وعليه يتضح ذلك الدور الذي يلعبه كل من العقل والبيئة في تشكيل الانسان وتطوير سلوكه وتعديله وتهذيبه .

وطالما أن الغاية الأساسية من حياة الانسان هي المحافظة على نوعه وضمان بقائه فقد تم تقسيم الغايات الحساسة للانسان الى ما يأتي :

- ١ - المحافظة على الفرد
- ٢ - المحافظة على النوع
- ٣ - المحافظة على الجماعة

والانسان هكذا في محاولات لا ثبات وجوده عن طريق انتهاجه لسلوك معين مقيد بتلك الفرائز ونزعاته العامة التي تنمو في ظل وجوده خلال البيئة الحاوية له .

المؤثرات الخارجية على السلوك الانساني

١) الانفعال :

وتمثل في الحالات الوجدانية العنيفة التي تشمل النفس البشرية والجسم بالتغيير والاضطراب وتكوين احساسات خاصة تصدر من الجسم وتصبحها

عادة سحالة نزوعية .

ولكى يحاث الانفعال ينبغي أن تتوفر له عدة شروط :

اولا : وجود الكائن الحي الذي لديه من الظروف الفطرية والمكتسبة ما يحدد مدى وطبيعة استجابته للمؤثر .

ثانيا : مؤثر خارجي أو باعث داخلي وهو الادراك

ثالثا : حدوث الاستجابة والانفعال لمواجهة الشعور الداخلي والتقييد الخارجي وناحية التغيير الفسيولوجي .

ومن هنا فالانفعالات تكون مرتبطة والاحساسات المختلفة كذلك تتوقف على الناحية الادراكية التي يمكن اعتبارها ركنا من أركان الناحية الانفعالية وقد تكون في حد ذاتها تختص بالناحية التمييزية ، وقد تكون الناحية التأثيرية في الاولى تعتمد في قياسها على التغييرات الفسيولوجية والثانية على مدى تأثير الشخص ذاته بالمؤثرات الخارجية .

الأنفعال وأثره في مظاهر الوجود

لا شك ان الدوافع لها عميق الأثر من حيث اعتبارها قوة دافعة للعمل البشري من حيث مدى الارتكاز في استثارة انفعالات الافراد وتحريك عواطفهم والتحكم في غرائزهم من أجل اجتذابهم وتوجيههم نحو القيام بعمل معين .

وبالوقوف على العوامل التي تتمكن عن طريقها من اثارة العواطف والتحكم فيها والتي بالتالي يمكن عن طريق العواطف تنظيم الغرائز والحد من طغيانها على السلوك الانساني والارتقاء بها الى آفاق بعيدة عن الانحراف قريبة من الكمال والمثالية .

وهكذا فعن طريق التحكم في النزعات الغريزية للفتات البشرية وبانتهاج

الطرق والوسائل التي ترمي الى استثارة احساسات الفرد وتهييج مشاعره ودفعه الى تذوق الجمال والخير والحق فهذا ما ينقى احساساته ويرفع من ذوقه ويقر به من المناهج المتكاملة المتناسقة - هذا بدوره ما يؤدي الى جعل الانفعالات وسيلة لجعل النفس البشرية تنساق الى الاعمال المتكاملة الخالدة .

الاستهواء

وهي من النزعات ذات الصفة الفطرية او الصفة النابعة من وجود الانسان في نطاق بيئة اجتماعية . فالاستهواء يمكن اعتباره نزعة فطرية او استعداد غريزي في النفس البشرية عامة تهيب الفرد لتصديق آراء الغير والتفاعل معها إما بصورة عكسية اى من حيث مدى انتقال الأفكار من فرد الى آخر ومدى ميل الفرد الى تصديق تلك الآراء .

أنواع الاستهواء

لقد استقرت البحوث النفسية على تقسيم الاستهواء الى أنواع متعددة منها .
استهواء مباشر ناتج عن استهوائك لفكرة لا ترد في الاعتقاد بها واعتناقها
وهناك استهواء غير مباشر ناتج عن التأثير بمؤثرات خارجية عن ذاتك .

والاستهواء إما أن يكون

استهواء فردي يعود على التأثير نفسه واما أن يكون استهواء جماعي أى يؤثر في عدة افراد مكونين لقاء اجتماعي ، وقد يكون هذا الاستهواء مجرد استهواء الكلام أى الايمان بفكرة والتعبير عنها دون أن يكون السلوك الشخصي المتأثر مطابقا لتعاليم هذا الرأي .

واما أن يكون استهواء سلوكي أى أن سلوك الفرد في تلك الحالة مجرد انعكاس مطابق لما آمن به من أفكار ومعتقدات ومؤثرات .

وقد يكون الاستهواء صفة ايجابية أياً لا يكون هناك تمازج بينهما . افكار جديدة واما أن يأخذ هذا الاستهواء صفة ضدية أو عكسية للأفكار والمؤثرات .

عوامل نجاحه وشروطه

والى يحدث الاستهواء يجب ان يكون هناك مؤثر ومتأثر تحت ظروف معينة . ولا شك أن التأثير من فرد لآخر يتحقق بسرعة وما عليه اذا ما كان كلا الفردين من جنس واحد ومعتنقين لهقيدة واحدة أو حزبا واحدا فهذا مما لا شك يسيل عملية الاستهواء ويزيد من استجابتها المتبادلة .

كما أن هناك من العوامل ما تزيد من معدلات نجاحها وقوتها وهى :

١ — جهل السامع بالنسبة للمتكلم من حيث شخصيته أو مجال تخصصه .
٢ — اذا ما كان السامع فى حالة جسيانية ومعنوية تضعف قدرته على النقد والبحث وراء المسببات والبواعث والعوامل الأساسية التى تيسر عليه اعتناق الأفكار .

٣ — كذلك يكون لتفاوت درجة الذكاء بين المؤثر والمتأثر دورا فى دفع التأثير لقبول الأنكار دون المبالغة فى الاستقصاء من ورائها .

٤ — وجود الشخص المتأثر فى لقاء جماعى فهذا مما يضعف من مستوى تفكيره وادراكه للمسئولية وقدرته على النقد والتالى يصبح منقادا وراء المجموعة وتذوب شخصيته فيها وهذا بالعكس اذا ما كان الفرد بمفرده فيكون أقدر على التروى والبحث والنقد والتمييز .

أثر الاستهواء فى التكوين الاجتماعى

مما سبق نستدل على أثر الاستهواء فى تبادل الأفكار وخلق التهام فكري

وعقائدى بين أفراد المجتمع الواحد وجعلهم يندمجون فى أفكار واحدة قد تتعلق بالدين والتقاليد والقيم الأخلاقية والمفاهيم المتوارثة .

ومن هنا تتمكن المجتمعات من الحفاظ على تراثها الثقافى والقومى عن طريق استخدام مالى النفوس البشرية من استعدادات فطرية كامنة فى أعماقهم تهيئهم للتربط والالتحام الفكرى والسلوكى وتلاقيهم نحو غاية واحدة .

وامام ظاهرة الاستهواء قد تعترض طريقنا ما يكمن فى النفوس من استعدادات فطرية أيضا من حيث غريزة الشك التى تعتبر من القوى المضادة للاستهواء . من حيث أنها تبعث فى النفوس ملكة النقد والتشكك والمناقشة والتأمل والتطلع والبحث وراء البراهين والاستدلالات الكافية لاجتذابهم نحو تلك الأفكار والعقائد الجديدة لاعتناقها والامتزاج معها .

وعليه فلضمان انتقال الفكرة بين أفراد المجتمع الواحد بسهولة ويسر وما يترتب عليها من توطيد الصلات بين أبنائه وجعلهم أكثر ترابطا وقدرة على التفاهم والانسجام الروحى والمادى فيجب ان تراعى تلك الدولة فى اعلا خير العادات واحسن المبادئ التى لا تترك مجالا أو ثغرات للنزعات المتشككة حتى تخلق النفوس المتكاملة السامية - فاذا ما كان هناك استهواء ما بين الأفراد ضمن سلامة غاياته وحتمية الارتقاء بالنفوس أو حمايتها من الانحرافات ولتتمسك بالعادات والمبادئ الخالدة .

وأخيرا فيجب على كل بيئة لا تسرف فى عملية الاستهواء والا فقدت تؤدى الى اضعاف شخصية أبنائها وذبول ملكات النقد والقدرات على التفكير والابتكار .

المشاركة الى جدانية

تلك الظاهرة لا تظهر دلائلها إلا عندما يجد المرء نفسه في جمع من الافراد يمر بهم ظروف معينة فتولد عنها حالات وجدانية خاصة ذات تعبير واضح قد تلحق بهم جميعا أو تختص بفئة منهم وتنتقل من شخص لآخر حتى تصبح في النهاية حالة وجدانية متشابهة لدى الجميع ولهذا الظاهرة من الآثار في هذا الجمع من حيث تماسك وانجاس أفراده وتعتبر كروابط قوى يجمع ما بين القلوب وتوحد بينهم .

هنا وقد نصبح من الأمور الشاذة أن يوجد شخص أو فئة في مجموعة كبيرة تمر بحالة وجدانية خاصة وتلك الأقلية تشذ عنها ولا تتجاوب مع أحاسيسها ومشاعرها وعليه لا تستطيع تلك الجماعة أن تقبل ببساطة وجودهم بينهم حفاظا على الشعور السائد من حيث التجانس الوجداني .

مما سبق يمكننا أن نستدل على أن هناك نزعات عامة ودوافع داخلية تدفع الفرد لانتهاج سلوك معين كما وأنه توجد بجانب تلك النزعات دوافع أخرى ثانوية يكتسبها الأفراد بموجب وجودهم في نطاق جماعي وتفاوت فيما بينهم تبعاً لعدة عوامل ومن تلك الدوافع الثانوية العادات والتقاليد والعواطف والعقد النفسية .

العادات

توجد في نفس البشرية من الاستعدادات ما تجعل الإنسان يكتسب ميولا خاصة لأداء سلوك على النحو الذي يعطية تميزا خاصا يميزه عن غيره .

فالعادة : هي عبارة عن سلوك معين ينتهجه الفرد بنمط آلى متكرر لأنها عمل واحد أو عدة أعمال أو أنها تعنى الحفاظ على منهج معين وأسلوب خاص لأداء سلوك معين على نحو آلى مكتسب يؤدي بدوره الى أداء العمل بسرعة وانتقان وبدون جهد .

وبلا شك أن لكل منا احساسات ووجدانات خاصة وأساليب تميزه ونرى هذا يتمثل في تكرار عمل واحد وبصفة مستمرة لما يعود على صاحبه بلذة أو فائدة معينة ويظل هذا التكرار الإرادى في الاستمرار حتى يصبح عادة مكتسبة وتتمثل تلك الصورة اما في عادة حركية حرفية أو عادة عقلية من حيث طريقة المنطق والتفكير واما في اختصاص صاحبها بهـاطفة معينة تسود باقى غرائزه .

اكتساب الشخصية للعادات والتخلص منها

لمن الواضح أنه يمكن عن طريق تتبع سلوك شخص التنبؤ بسلوكه بعد ذلك على أثر ادراك طابعه وانعكاس شخصيته وروحه على سلوكه ويصبح له لون واتجاه معين وأسلوب خاص ومن هنا ينبغي على المجتمع من أجل التحرر من الجود والتقاليد البالية التي تعوق التقدم وتعرض طريقة نحو الرقى أن يهتم بأفراده من حيث مدى اكتسابهم للعادات الحسنة والتخلص من ما هو مسىء وأن تكون هناك مفاهيم عليا تتضمن في محتواها أعمق معانى الكمال والتي تتفق وتتلاءم مع الميول والاستعدادات الاجتماعية الشائعة .

وان كانت العادات لها من المميزات ما تعود على صاحبها بسرعة ازاء ذلك العمل واتقانه الا أنها في نفس الوقت تؤدي الى الجود من ابتكار أساليب جديدة متطورة وهذا ما يتبلور آثاره على نطاق أعم وأشمل من حيث وقوفها عقبة في

سبيل رقي للفرد وبالتالي المجتمع عامة إذا لم يكن هناك من المرونة والقابلية ما يساعد على تحرر النفوس وقد عبر الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو عن ذلك فقال « خير عادة ألا يكون للمرء عادة ما » وكلما انتشرت العادة في المجتمع ورسيخت جذورها فيه كلما اقتربت من صفة التقليد ، ومن هنا تأتي حساسية العادات في المجتمع من حيث كونها سامية متقدمة تنهض به واما أن تنصف بالانحطاط فتتحرف به عن السمو والكمال .

التقليد

وظاهرة التقليد تعتبر من العوامل الهامة في تشكيل المجتمعات ومن حيث كسب الأفراد لأساليب السلوك المتباينة .

والتقليد من حيث أنه يتمثل في انتقال السلوك بين أفراد المجتمع فهو يعتمد في وجوده على مدى الرغبة المتوفرة للشخص المقلد وتدفعه لاختيار سلوك معين والتشبع بظواهره وبالطبع لن يكون الدافع فحسب هو كل المقومات التي يحتاجها الانسان للاختيار وانما تتوقف ايضا على المقدرة المتوفرة لدى هذا الشخص والامكانيات التي تتوفر لديه لتمكنه من انتهاز هذا السلوك .

ولو تتبعنا ما وراء تلك الظاهرة والدافع الى وجودها في نطاق اللقاءات الاجتماعية لوجدنا أن من البواعث على تقليد الأشخاص لسلوك معين لفرد أو أفراد آخرين تنحصر من حيث غايتها في الفرض النهائي من التقليد والآثار التي تترتب عليه وتعود على صاحبه من ورائه ، كما وانه في ممارسة التقليد قد يتوقف على مدى اعجاب شخص بصفات معينة تتوفر في شخصية مشهورة وقد يؤدي هذا الاعجاب بدوره الى امتصاص حركات هذه الشخصية وتصبح

كطابع خاص له أيضا .

والتقليد كإيماء ينتقل من فرد لآخر يتعدد في أنواعه من حيث كونه تقليد فردي أى من فرد لآخر أو تقليد مقصود أو غير مقصود .

ومما لا شك فيه أن التقليد آثاراً بالغة العمق في الكيان الاجتماعى من حيث كونه وسيلة فعالة في نقل العادات والتقاليد المختلفة والحفاظ عليها ثم بالتالى توارثها جيلا بعد جيل كذلك تسوارث واكتساب المهارات الفنية المتداولة في المجتمع .

واذا ما اهتم بتلك الظاهرة في نطاق المجتمع لاتخذت وسيلة ناجحة للبحث في النفوس كثيرا من النواحي الدينية والخلقية والاجتماعية بحيث يتمكن من هذا السلوك بصورة متكاملة خالدة ويخلق بهذا معايير سامية ومفاهيم لآداب السلوك الانسانى .

العواطف وأثرها في التكوين الإخلاقي

الانسان بالديه من استعدادات فطرية وعادات وجدانية تتمثل في أحاسيس ومشاعر تبع الوجوده في تكوين اجتماعى وما يترتب عن مروره بتجارب واحتكاكات خاصة مع من يجاوره يشعر باستثارة معينة في تلك الظروف من جراء ما يتولد من انفعالات تتطلبها كل موقف أى أن سلوك الافراد تكون غالبا مرتبطة بمؤثرات واحتكاكات خارجية .

وقد أشار « ماككدوجل » في أقواله عن العاطفة « انها كجزء من

تكوين العقل أو استعداد عقلى اذا توفرت شروط تجتمع فى صاحب العاطفة وفى مجال حياته وفى أثناء الاستثارة فينفعل ويظهر سلوكه وكل انفعال وسلوك يختلف باختلاف الموقف الذى تحدث فيه الاثارة.

ومن ثم فالإنسان بما لديه من استعدادات فطرية مختلفة متباينة قد تؤدي الى تكوين أوضاع لها شىء من عدم التنظيم لو ظلت على صورتها الفطرية البدائية ومن هنا جاءت العواطف بشىء من تنظيم السلوك على درجة أرقى من مستوى الغرائز بحيث تتحكم فيها وتوجهها نحو وجهات متطورة تبعاً لممارسة الفرد للتجربة والخبرات الناتجة عنها والعواطف تكون ناتجة عن واقع مادي أو واقع معنوي والعواطف المادية تكون ناشئة عن انعكاسات للواقع المادي الملموس الذى يمكن لصاحبها أن يدركها بالحواس أما العواطف المعنوية وتنتج من انعكاسات لواقع غير ملموس كعاطفة الحب وتذوق الجمال والتقرب من الخير والحق والانسانية وقد يكون فى التكوين العاطفى للإنسان عاطفة سائدة توحد ما بين وجهات العاطفة والنزعات المختلفة الكامنة فى النفس بحيث توجه كافة نشاطه العقلى نحو غاية واحدة لا شأعها لها من سيطرة على تفكيره ومشاعره .

ومن هنا تتبلور أهمية العواطف فى التكوين الاجتماعى بحيث يمكن توجيهها توجيهاً سليماً لصالح المجموع وتصبح قوة دافعة للتقدم والرقى بحيث لا تنحرف وتنفصل عن الاطار العقلى والفكر المستنير .

فليس هناك أعرق تعبيراً من التوفيق بين الغايات والسلوك خلال المجتمع الواحد مثل توحيد العواطف وتوجيهها نحو الحق والخير والجمال والوطنية فهذا هو السبيل الواضح المعالم الذى يؤدي الى الابداع والفن والابتكار والناس

اماليب للنجاح فى الحياة والارتقاء بالارادة الانسانية فى حدود الاطار
الخلقى الكامل .

وعلى سبيل المثال اذا ما كانت العاطفة السائدة هى « حب الخير » فنجد
أن الجهود الانسانية نتيجة لتحقيق هذا الاتجاه فتتصب اطلاعات الفرد على المثل
الاخلاقية والمبادئ الانسانية السامية وتتلور الحقوق الخالدة ويتقرب السلوك
البشرى عامة الى ما يحقق تلك المفاهيم وتعمل على أن يسود الاخفاء
والسلام والاستقرار .

الكبت والعقد النفسية

الطبيعة البشرية مائلة بفطرتها للانطلاق نحو اشباع رغباتها وجوانحها واذا ما اندفعت نحو تحقيق مآربها نجد أنها تصطدم بواقع الحياة بما فيها من قيود وضوابط حابكة والتزامات من الفرد نحو مجتمعه .

وهكذا تصبح النفس في صراع داخلي يدفعها نحو تحقيق نزواتها الطبيعية ودافع آخر يجبرها للرضوخ لنواحي البيئة واعتباراتها فإذا ما ازداد هذا الصراع وحال دون أن تصل الى مطالبها فقد يؤدي الى حالات من الكبت والامراض النفسية وعقد تشيع في النفس من القلق والاضطرابات ما يضعف النفوس ويشتت الطاقات والقدرات.

وعليه فتقع على المجتمع مسئوليات جسيمة من حيث وضع المناهج المنظمة التي توضح على أسس علمية سليمة لحقيقة النفس البشرية ومطالبها ويجب أن تعمل السلطات والمجتمع على تعديل وتطور الفرائز بما يلائم لقيام مثل العليا . فإن من الواضح أن الخلق المتين القائم على الايمان والفهم قد يخلق النفوس القوية ويجعلها تصمد أمام التيارات المتضاربة وتشعر صاحبها بالكرامة وتنمية الضمير .

تكامل الشخصية

من سبق نسعمل على أنه من خلال السلوك الإنساني في نطاق بيئته الاجتماعية قد نتمكن من الاستدلال على حقيقة الطبيعة البشرية ومدى سيطرة الفرائز والدوافع علي الفرد وتحكمها في سلوكه .

فالفرد بحكم كونه متأثراً بمجموعة من الاستعدادات سواء أكانت فطرية أو مكتسبة يمكن الحكم عليه من حيث مدى تكامل أو اهتزاز شخصيته وتبعاً لمدى التنسيق بين النزعات الفطرية والمكتسبة في نفسه ونسوع العاطفة السائدة التي تتحكم فيه .

والبيئة الاجتماعية بكونها تحتوى على فئات عديدة متنوعة من الأفراد فقد يكون الاختلاف بين شخص وآخر يرجع الى ثلاثة مؤثرات :

(١) الاستعدادات البيولوجية والنفسية

(٢) البيئة

(٣) مؤثرات خارجية عامة

وكان الانسان دوماً يفتش عن جوهره وجوهر وجوده واختلفت الآراء بالنسبة لكل عصر ولكل انسان ولم يعرف لوجود الانسان والكون مفهوم واحد حقيقى ولذلك فالمقاييس التي يمكن أن تتوصل اليها هي في حقيقة محنوها مجرد مفاهيم عامة لا يمكن لنا أن نعتبرها مقاييس ثابتة دائماً لأبعاد وآفاق غير محدودة .

واذا ما كان المجتمع يتألف من مصالح متضاربة ومتباينة تجعل كل فرد لا يفكر الا في مصلحته وتحقيق حياجه فلا شك أن هذا سوف لا يؤدي الا للاضطراب والفوضى والتفكك . وهكذا النفس البشرية فلو تصارعت الغرائز والانفعالات والميول والأحاسيس بحيث يحاول كل منها أن يستأثر بسلوك صاحبه على النحو الذي يشبعها فيه ويحقق لها مطالبها وشهوتها فلا شك أنها

منؤدى بصاحبها الى الأضطراب النفسى وانحراف السلوك واهتزاز الشخصية بعكس اذا ما كان هناك توفيق بين تلك الغرائز والانفعالات وأصبح السلوك البشرى هو وسيلة لتوزيع أقساط متساوية عليها فلاشك أنها سوف تنعكس آثار هذا التنظيم والتوفيق على اعطاء سمات عليا لصاحبها من حيث الاستقرار والاتزان والتكامل وبحيث لا يكون هناك تعارض بين النزعات المختلفة وإنما هناك تناسق انفعالى واتزان فى السلوك والتصرفات .

ومن ثم فلانسان اذا ما تحكم بما يدور فى داخله من احساسات وخواطر ونزعات ووفق فيما بينها من حيث الاتزان والاستقرار يصبح من ذوي الشخصية المتكاملة المتزنة ثم ينبثق بعد ذلك أثر البيئة بما فيها من مظاهر اجتماعية وأوضاع معينة ومفاهيم خلقية خاصة بها من حيث أثرها فى أن تزيد من تلك الاستعدادات الانسانية وتسمح له بممارسة هذا التفاعل المتناسق وترتقى به أو تخنق له اضطرابا فى الأوضاع يحطم تلك الاستعدادات والاحساسات ويشتها ويجعله يعيش فى فراغ لانهاى لا يدرى ماذا يريد وأين ينتهى وكيف يصل الى استقراره الروحى والمادى .

الأخلاق

وعلم الأخلاق هو أسمى غايات المعرفة لقدرته على ضبط السلوك البشرى وتوجيهه نحو غايات متكاملة سامية يعبر عن أسمى مظاهر الوجود الإنسانى . . . وبالتالى فهو قادر على خلق التوافق بين الغايات الفردية والتضامن بين الفئات من أجل خلق مجتمع السعادة والكمال والاستقرار .

وكما هو مستدل على علم الاخلاق فى الفلسفة اليونانية بانه لا مجرد مجموعة

قواعد تعليمية غير ثابتة ، الغاية منها هو الارتقاء بأحوال بنى الانسان والسمو بها ومحسينها « تم تخطيط لهم منهجاً متكاملًا عما ينبغي أن ينهجوه ويسيروا بمقتضى تعاليمه وحدوده ثم بالتالى بنهاهم عما يجب أن بهجروه من أعمال قد تؤدى الى الاضرار بهم .

ومن ثم فعلم الأخلاق غايته إصلاح النفوس والأرتقاء بها الى آفاق السعادة والكمال والخلود الذى يحدد لهم أبعادها ومظاهرها ومدى توافر الاستقرار والمصدر للنشأت البشرية وذلك لأن المبادئ الاخلاقية دائما وأبدا تدعو الى الفضيلة والعفة وهما جناحا عمل الخير الذى هو بدوره أساس السعادة والتوفيق بين النشاط الإنسانى عامة .

الاخلاق والمجتمع :

لاشك أن الكمال والسعادة والخير هى ما تصبو اليه النفس البشرية وتتطلع لها بلهفة واشتياق وتتقرب نحوها بصورة ارادية أو لا ارادية حيث أنها صدى لمطالباتها على مر الأجيال وتعبير عن مكونات النفوس عامة .

ومن هنا فالنفس البشرية تجعل من السعادة الغاية القصوى للسؤل والأفعال والتصرفات فى نطاق المجتمع وطالما أن الاخلاق هى الجوهر الذى يحمل فى ماهيته السبل التى تؤدى بدورها الى الكمال الاجتماعى من حيث توافر الحق والخير والسعادة، وبمعرفة قانون مكونات الاخلاق يمكن استكمال أوجه النقص فى الحياة الانسانية وفتح آفاق شاسعة للأفعال السامية والحصول الجميدة والطاقات المتكاملة .

مكونات الأخلاق:

ويتتبع مراحل الجمود الانسانية ومحاولاتها للخلق والابتكار من حيث النظم والقوانين والعلاقات المادية الروحية نجد أنها مقلدة للطبيعة تقتبس منها وتهتدى بضيائها وتتفاعل معها . فاننا لانكاد نجد اختراعا مهما كان إلا ونجد له مثيلا في الوجود النوعي من حيث مظاهر الطبيعة ذاتها .

ومن ثم فخلق النظم الإجتماعى والقواعد الحاكمة للسلوك الإنسانى يجب ألا تبتعد عن أذهاننا أثر الطبيعة المحيطة بالانسان من حيث تأثيرها فى تعديل أطواره وأخلاقه ومظاهر وجوده بحيث تذهب الى أوضاع يمكن بموجبها وقواعدها أن تستجيب الى مقتضيات الاقليم وظواهر الطبيعة المحيطة به ، ومن هنا فقد اختلفت أخلاق الأمم باختلاف أقاليمها وتبلور هذا فى تلك الفروق الشاسعة بين أخلاق أهل البادية عن أهل المدن وأخلاق سكان الوديان والسهول عن أهالى الجبال وهكذا ...

ويتتبع أصل نشوء القواعد الأخلاقية ومسببات ظهورها نجد ان للعقل والفكر الإنسانى دخلا كبيرا من حيث تكوينها وابتكار قواعدها وسننها ، فالانسان بحكم وجوده وتطوره فى نطاق التقاء جماعى نجد أنه قد توصل بفكره الى خلق قواعد أخلاقية تنظم فيما بينها من علاقات مرجعها تبادل المنافع والوقوف على ماهية الحقوق والواجبات فاضطراره الى هذا الالتقاء الجماعى دفعه الى تكييف الاخلاق اللازمة لتلك الظروف والمقتضيات .

فالفرد من حيث ذاتيته وكيانه فله واقعين أحدها ذو صفة فردية وآخر جماعى وعليه إما أن يحقق ذاتيته الفردية بما فيها من انفعالات وغرائز وميول

وهذا بالطبع لن يتأتى إلا في صومعة الانعزال أو الاصطدام المستمر بمن يحيطون به، وأما أن يتنازل عن جزء منها في سبيل الاحتفاظ على ما تبقى وعلى استقراره في هذا الالتقاء الجماعي .

وعليه فقد إستمد من خلال ارادته ورغبته في الحياة والاستقرار طاقة وقدرة في كبت رغباته والتذرع بالصبر والتنازل عن بعض حقوقه الطبيعية في سبيل مصلحته ومن أجل ضمان بقائه والاحتفاظ بباقي حرياته وحقوقه - ومن هنا أصبحت تلك الاخلاق عادة ثم صارت على مر الأجيال والسنين استعدادا فطريا وغريزيا يبدأ بتوجيه وتحكيم العقل والتفكير وفقا للاحوال والظروف، ثم تعمل الارادة بتوجيه السلوك بصفة اضطرارية متعاقبة وبتكرار هذا العمل يصبح عادة تتوارث بتوالي السنين والأجيال حتى يذتهى بها الحال وتصبح خلقا متميزا لتلك الجماعة الانسانية .

وعلى هذا النمط تكونت القواعد والسنن الأخلاقية بتعاقب السنين ويختلف بين الأمم تبعاً لاختلاف أقاليمها وسائر ظروفها وباختلاف أطوار مدنياتها أيضا وتبعاً للمؤثرات التي تسوإى عليها وتؤثر في تشكيل المعايير الاخلاقية بحيث تكون تلك المبادئ الأخلاقية واضحة متكاملة لا تحتاج لبراهين معينة لجذب الفئات نحوها وذلك بكونها لا تحمل شكا أو جدلا ، وباعتبارها قاعدة للسلوك الانسانى عامة تستهدف خلق مجتمع متكامل تسوده نظم وعلاقات لا تضارب فيها أو تعارض وإنما تجانست من حيث الغاية والوسيلة فلو تعمنا في هذا الهيكل المتلاحم المنسجم لوجدنا أن لهذا التكامل درجات وطبقات ... وأبعاد ...

مكونات التكامل الاجتماعي :

للتكامل الاجتماعي درجات تتمثل في مدى الحاجة المتبادلة التي تخلق الروابط والعلاقات التي توثق الصلات بين أفراد المجتمع مع بعضهم كذلك بقدر تقسيم العمل وخلق النظم الفعالة التي عن طريقها يستم أشباع الحاجات اللازمة للبقاء والاستقرار .

والتكامل الاجتماعي هو مدى تفاعل الأفراد واستجابتهم للقيم والمفاهيم والضوابط الحاكمة التي تنظم السلوك الفردي ، ومدى تبلور المظاهر التي تعبر عن تلاقى الأفراد نحو الوصول الى هدف واحد وغاية مشتركة تنهار أمامها التناقضات المختلفة والصراع الهدام ويصبح للجماعة من الالتحام الفكري والمادى ما يمكنهم من الصمود أمام الهزات التي قد تعترض طريقهم وتحد من انطلاقهم نحو الكمال والاستقرار والرفاهية .

وكما كانت القيم والمفاهيم ، التي تعلو هذا الالتقاء البشرى ، من الواضوح والتعمق كلما كان اكتسابها دون وعى أو مشقة ، وبالتالي تؤدي الى خلق الرضا العام والاستقرار الروحي الذي هو في الواقع من أهم الاستدلالات والظواهر على هذا الكمال الاجتماعي .

ومن هنا تتضح حاجة البشرية لبلاورة غاية الوجود الانساني في صورة قيم ومفاهيم أخلاقية سامية تمجد الانسان وتحترم حقوقه الخالدة من حيث الحياة وتضعها في صورة انسانية كريمة تحقق ذاته وكيانه وتعطى له الفرصة الكاملة لممارسة الحياة الاجتماعية في أرفع صورها وأكثرها كمالا ورفاهية .

والأخلاق يكونها أسلوبا بناء أرفيما قادرا على هداية الإنسان نحو نور الحق..

ويحول دون وقوعه في أحضان الرذيلة والانحراف .. فهي في حسد ذاتها
تصدر المناهج التي تقود البشر الى أوضاع التكامل في كافة مجالات الحياة . .
ومن هنا أيضا نستدل على حساسية هذا العلم من أجل استكمال مظاهر التكامل
الاجتماعي والمدى الذي يؤثر به نحو خلق هذا التوافق بين الفئات البشرية بتباين
مستوياتها المادية والفكرية في نطاق المجتمع الواحد . وعليه فكلما كانت القيم
والمفاهيم الأخلاقية أكثر ارتباطا بالواقع الانساني كلما كانت جذورها تمتد
الى أعماق بعيدة في داخل النفس حتى تنعكس آثارها المخالدة السامية على السلوك
البشرية بصفة عامة .

والمجتمع بحكم تكوينه من فئات متباينة يحتاج عليها أن تضع مجموعة من
القواعد والنظم التي عن طريقها يتم التوفيق بين الواجبات والحقوق فيما بينها وذلك
من أجل تحقيق الغايات الأساسية من وراء هذا الالتقاء - كذلك توضع التشريعات
اللازمة لتنظيم حقوق وواجبات الافراد قبل أمتهم - ثم يلي ذلك التشريعات
نحو وضع الضمانات اللازمة للحفاظ على تنفيذها في حدود امكانيات
المجتمع .

وبهذا يمكن أن يتحدد مدى تقارب هذا المجتمع من التكامل والانسجام
بالمدى الذي تصل اليه استجابة الافراد نحو تلك التشريعات ومدى استقرار
المجتمع سياسيا واقتصاديا واجتماعيا .

والإنسان بما له من واقع مادي وواقع روحي فلن يحدث هذا الاستقرار وهذا
التكامل من خلال تلك النظم والمفاهيم الا اذا كان هناك ائزان مابين الجانبين
وتوفيقا بين مطالبها على السواء .

وهكذا فعلى السلطة المنظمة أن تعمل على :

— التوفيق بين مطالب القرد ومطالب غيره :

ب - ثم يلي ذلك تقديرا ووزنا لتلك المطالب المتباينة وحدود امكانيات الدولة المتوفرة لديها.

ج - ان يكون هناك تقدير لتلك التفاعلات النفسية التي تتأصل جذورها في النفس البشرية

فإذا تمعنا في مجتمع من المجتمعات الانسانية من أجل اعطائه درجة السكالم والرقى الخلقى - فتلك المعايير ولاشك أنها ستستند على معايير الأفعال والسلوك البشرى في تلك البيئة الاجتماعية ومدى توفيق النظم والأحكام الأخلاقية المتداولة فيما بين هؤلاء الناس والغايات التي تصبو اليها نفوسهم وأعمالهم . . .

ومن ثم فالتناجد أنفسنا أمام مفاهيم نسبية لاتتوافر لدينا في صورة ثابتة أو قواعد لاتتغير على مر السنين أو باختلاف المجتمعات - ولكننا سنحاول أن نصل الى تلك المفاهيم ووضع صورة ثابتة لها بقدر الامكان وذلك من خلال استعراضنا لصفحات التاريخ بما تتقنه من مفاهيم وقيم مختلفة التي استهدفت في مضمونها معايير السلوك البشرى من خلال بعض الفلسفات الخلقية والحكم عليها من حيث ايجابيتها أو سلبيتها ومدى توفيقها أو فشلها نحو الارتقاء بالوجود الانسانى عامة ضابطة للسلوك الانسانى ومقياس للتمييز بين الخير والشر والسعادة مجردة جميعها من الزمان والمكان .

سقراط والفلسفة الخلقية :

كان سقراط هو أول من أرسى جذور الفلسفة الخلقية في الدولة اليونانية القديمة حيث أنه أنحرف عما كانت عليه الفلسفة من حيث تخصصها في دراسة الميتافيزيقيا وعلوم الطبيعة واعتبرت السلوك الانساني ذا مكانة ثانوية في مجال البحوث والتنمية . ولكننا نجد الفيلسوف سقراط قد إهتم إهتماما بالتبادلية السلوك الانساني وبارساء جذور علم الأخلاق ومحاولاته في وضع مقاييس ثابتة تجرى بموجبها معايير خير الأفعال وشرها .

الفلسفة السفطائية

وقبل أن نتعرض لفلسفة سقراط الأخلاقية قد يفيدنا استرجاع الفلسفة السفطائية التي نددت بالقيم والمثل الأخلاقية واعتبرتها مبادئ جوفاء ومجرد عدة قوانين وتشريعات خلقها بعض القوم الضعفاء من أجل الحفاظ على وجودهم وممتلكاتهم أمام الحقوق الطبيعية وسنة الحياة من حيث حق القوى في السيطرة على الضعيف وبالتالي استسلام الضعفاء لمن هم من ذوي القوة والبطش ولديهم من القدرات والأمكانيات مايساعدهم في الحفاظ على تلك الحقوق المكتسبة قبل الطبيعة .

ونرى أنهم قد اتجهوا بتفكيرهم الى أبعاد أخرى حيث أنهم اعتبروا تلك القيم الأخلاقية ماهي الا عشرة أمام الطبيعة البشرية من حيث انطلاقتها وكبح شهواتها واهوائها واستقروا بأن :

« تلك القيم من حيث تمجيد العفة مرجعها الى العجز عن اشباع الشهوة »
وامتداح العدل مرده الى القصور عن التفوق على الآخرين » (١)

كما أشاروا الى أن اللذة غاية للسلوك الانساني عامة باعتبار أن الطبيعة البشرية ما هي الا حشد لعدة شهوات ونزوات يجب أن يترك لها العنان ويسمح لها بحرية الانطلاق من أجل اشباعها ولا يعيب الفرد وفقا لتلك المبادئ أن يستتر وراء الطبيعة والسلوك الانساني اذا ما كان هذا يؤدي بدوره الى اشباع تلك النزوات والشهوات وعليه أباح السفسطائيون الانسان أن يسير وفقا لاهوائه وشهوته لأن ذلك في مفهومهم هو طريق السعادة والكمال والاستقرار الروحي والمادى :

فلسفة سقراط :

على أنقاض الفلاسفة السفسطائية أقام سقراط دعائم فلسفته الأخلاقية وحاول استنباط قواعد أخلاقية ناجية تلائم كل زمان ومكان . وقبل أن نتعرض لفلسفة سقراط نلحق نظرة سريعة على حياة هذا الفيلسوف كإنسان لا يعرف الخطأ طريقا له ولم يستطع أحد أن يجد نفرة ما بين منطقته وسلوكه يحاول أن ينفذ من خلالها بالنقد والتجريح فكان سقراط إنسانا يعرف كيف يحرر نفسه من قيود الشهوات وكبح جماحها والاحتفاظ بصفاء الروح ونقاء الجسد والتحرر من آثام الخطيئة .

وأمام تلك المبادئ والمثل التي يتحلى بها هذا الفيلسوف أخذ يجد العقل ويجعله الأداة الحابكة والضابطة والذي يمكن الانسان من السيطرة على شهوات الجسم وأداة للتحكم في النزعات والأهواء ونفى سقراط ما زعمه السفسطائيون من حيث كون الجسم والطبيعة البشرية مجرد حشد للنزوات والنزعات والغرائز

(١) الفلسفة الخلقية (دكتور توفيق الطويل)

والشبهات وانما الطبيعة البشرية في مفهومه هي جسم وعقل يسيطر على الدوافع والغرائز والتزعات الكامنة فيه .

وانتهى سقراط بأنه طالما أن العقل هو الحاكم والضابط للسلوك البشري فلا ريب بأنه اذا ما أرست جذور المعرفة الحقة وقوانين الأفعال الكريمة في هذا العقل فانه بالتالى ستنعكس آثار تلك المعرفة على السلوك البشري ومن هنا جاء قول سقراط بأن الفضيلة هي وليدة المعرفة .

وعلى هذا النحو اتجه سقراط لوضع قوانين ثابتة للاخلاق وتغاضى عن الدوافع اللاارادية في النفس البشرية وأثرها في توجيه السلوك البشرى عامة وانتهت فلسفة سقراط بأن السعادة هي الباعث الأول على مزولة أعمال الفضيلة التى هي بدورها غاية الحياة الانسانية .

المدرسة الكليية

أقام « أنتستينز » تلميذ سقراط بإنشاء مدرسة تدين بتعاليم سقراط ولكنها وضعت لها منهجا معينا كاد يشوه تلك الفلسفة السقراطية وذلك بأنها استهدفت السعادة الروحية غاية لها تنطلق نحوها بحياة يسودها التقشف ونكران الذات وكبت الشهوات حتى أنها قد أباححت للناس التجول في الطرقات يسألون عن طعامهم واتخاذ المعابد مأوى لهم . واستقر رأى « أنتستينز » على أن السعادة يمكن أن يجدها الفرد في داخل نفسه وأعماقه .

ولا شك أن تلك الفلسفة لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكون هي التعبير عن متطلبات النفس والذات الانسانية وإنما هي تشوه مظاهر هذا الوجود وتدعو الى التكاسل وإهمال المعرفة وقد جاء نقد تلك المدرسة على لسان كل من افلاطون وأرسطو واتهما « أنتستينز » بالحق وبلاذة العقل والقصور في التفكير .

فلسفة افلاطون الأخلاقية

اتجه افلاطون لوضع معايير ومقاييس ثابتة للأخلاق ليست على منهج سقراط بوصفها قوانين مطلقة متجمدة وإنما اتجه الى جعلها أكثر اقترابا من المظاهر المشتركة في طبائع الانسان .

واعتبر افلاطون أن الأفعال المعبرة عن الخير هي مصدر الوجود والكمال الانساني كما وأن الفعل الاخلاقي هو ما يحمل في باطنه مبرارته وغايته وبهذا لم يجعل افلاطون الغاية مقياسا لخير الأفعال وشرها وإنما الأفعال السامية هي التي تحقق غاية سامية أيضا - وهذا التقدير بالتالي يكون عن مدى انصالتها بالخير الشامل والآفاق الانسانية عامة .

ونرى أن افلاطون قد اتجه لوضع مكونات ثلاثة للنفس البشرية :

أ - النفس الشهوانية وغايتها اشباع حاجات الجسم المادية

ب - النفس الغضبية وتهدف للقتال وتديرها فضيلة الشجاعة

ج - القوة الناطقة وتنشد المعرفة والتعقل وتديرها فضيلة الحكمة .

والكمال النفسى بصفة عامة فى فلسفة افلاطون تقتضى بأن يكون هناك اتزان بين تلك النزعات مع عدم اطلاق العنان لاحدها حتى تغطى وتسيطر على باقى النزعات وتنفرد بالتأثير المباشر على السلوك الانسانى وهذا ما يؤدى بدوره الى المعادة والكمال النفسى وهما غاية الوجود الانسانى مع العمل الدائم المستمر لتنمية كل منهما ولكن على أسس متزنة سليمة هادفة للرقى وتنشد الكمال .

وهكذا فلم يتجه افلاطون نحو جعل اللذة الحسية هى غاية الحياة البشرية أو أن مجرد التصوف والانعزال قد يؤدى الى تحقيق مفهوم السعادة ، وانما عمل الى جعل الخير الأقصى لن يتأتى الا بالمعرفة ثم بالعمل على تنمية ملكات التسدوق والاحساس بالجمال والخير والحق وهذا لايعنى بالتمتع عن اللذات الحسية وانما فى الحدود التى لاتجعلها تنوء بصاحبها عن سنن القواعد الاخلاقية الفاضلة .

فلسفة أرسطو الاخلاقية

تتماز فلسفة أرسطو أنها فلسفة مؤسسة على الواقع وقائمة على أسس تجريبية مقتطعة من الحياة العملية ومفردات الحوادث اليومية - وقد اتجه أرسطو الى أن لكل انسان فى الحياة وظيفة مسئول عنها وعن آدائها وبمقدار دقته فى آدائه لعمله يكون قدر كماله . كذلك يكون مدى تقرب الانسان من الخير الأقصى والسعادة مقترنا بمدى تأثره بالتأمل العقلى والخضوع له .

ولم يتوصل أرسطو الى هذا المنطق الا بعد ما كان هناك تقدير منه لحقيقة الطبيعة البشرية والسلوك اللا ارادى واستناده على العقل الذى قدسه أرسطو وجعله العضو المقدس فى الانسان من حيث ادراكه وفهمه للحقائق . فهذه الخاصية فى نظر أرسطو هي الميزة للانسان عن باقى المخلوقات فاذا ما أهمل حياة العقل والادراك فقد يبعده هذا عن مظاهر الوجود الانسانى بل تقربه من الحياة الحيوانية .

وان الفضائل فى نظر أرسطو تكتسب بغرس العادات الفاضلة ثم بالمران والتعود عليها حتى تتحول العادة التلقائية لممارستها وعليه فالجهل فى نظره ليس عذرا للاهمال أو الانحراف ومن ثم فقد كانت مزاولة التأمل والتفكير والسمو الفكرى خلال مراحل ممارسة السلوك قد تؤدي بدورها الى أكل حالات الوجود الانسانى .

المدرسة الرواقية

تعتبر الفلسفة الرواقية مزيج من فلسفات كل من سقراط وافلاطون وأرسطو - كما وأنها تلتقي بالمدرسة الكليية من حيث حتمية الاستئصال الكامل للأهواء والشهوات .

وكانت الرواقية صفة تطلق على كل من تتوفر فيه عدة عناصر : -
اولا : القدرة على تحرير نفسه من قيود الأهواء والشهوات والنزوات

ثانيا : الانسان الذى يستهدف أعمال الفضيلة ليس من أجل ابتغاء اللذة وإنما باعتبارها واجبا يتحتم عليه

ثالثا : الانسان الذى لا يخضع للأفراح والأحزان والآلام

رابعا : الاستسلام لقانون القضاء

ومن هنا كان الحكيم أو الفيلسوف فى مفهوم الفلسفة الرواقية هو الذى ينتهج فى سلوكه منهجا يتحكم به فى زمام نفسه وفى عواطفه وغرائزه ويخضع لقانون الطبيعة المطلق المعبر على أن كل موجود فى العالم يكون مسوقا نحو غاية مدبرة لخدمة الانسان ، ويعترف بمقتضى قوانين الوجود التى تستند على وجود العقل الذى اذا ما اتبعه الانسان تقرب من عالم الكمال .

وهناك علاقات ثابتة بين الحتمية الكونية والحرية والانسانية من حيث أن الظواهر الطبيعية مقيدة بقوانين عامة وعلى الانسان الفرد أن يخطط سلوكه

وفق ارادته وحرية الشخصية وأن يوفق كذلك بين سلوكه وغايته وتلك القوانين العامة التي تسيطر على الظواهر الطبيعية المحيطة به .

كما وأنه ليس هناك أى عائق يحول بين الانسان وبين التمسك بالقيم الأخلاقية الفاضلة ويجعلها هى الحابكة لسلوكه العام خلال المجتمع الذى يعيش فيه - فمن حيث الواجبات التي تقع على كاهله فهو بمفرده صاحب الارادة في أن يقوم بها على خير وجه فهذا من الأشياء التي تحرره من الألم .

كذلك عليه أن يخضع للقوانين العامة التي تسير الكائنات على السواء وتتقبل كل ما يحل به من سراء وضراء بنفس راضية وعزيمة لا تجعله يحيد عن القيم التي يؤمن بها ويتحلى بمتلتها وكأن الآلام التي تمر بالانسان ما هي الا تجارب قاسية وظروف اضطرارية تؤدي في النهاية الى ضبط النفس وكبح جماحها حتى تزول تلك الآلام وتتمرد دون رواسب تذكر وكأن تصوير الفلسفة الرواقية للألم تشبيهها للألأمواج العاتية المضطربة التي تتلاطم بصخرة راسخة فتغطيها بالمياه ثم تنحسر عنها وتتركها كما كانت صخرة عاتية ثابتة لا يعثر بها تغيير يذكر ولا تتأثر بتلك المؤثرات الوقتية .

وعليه اذن فالرواقى الصحيح هو أن يكون منطقيا وعالما طبيعيا ومائلا للخير وأن يجعل الأخلاق تقود الحوادث والسلوك وأن يحتقر الجانب الحسى في الطبيعة البشرية وأن يتطلع الى مفاهيم عليا يوجه نحوها سلوكه فان فعل هذا حقق انسانيته ومجد كرامته وارتقى بنفسه الى انسان متكامل تلتقى فيه جميع الفضائل والمفاهيم الخالدة .

المدرسة الأبيقورية

تعتبر المدرسة الأبيقورية أن اللذة هي غاية الانسان من حيث كونها مصدر الخير وعلى الانسان ألا ينجس فيها وألا ينقاد الى مصادرها باندفاع وبلا تروى والا انعكست آثارها من سعادة وهناء الى شقاء وعذاب .

ويستحتم على الانسان في تلك المرحلة أن يتخلى عن اللذة والمتعة الوقتية ويضحى بها من أجل لذة دائمة تعقبها . واللذة في نظر الفلسفة الأبيقورية هي البعد عن الألم وتجنبه ثم الاندفاع الى المتعة ولكن تحت سيطرة العقل والتروى . وتؤمن كذلك بحقيقة واضحة ذلك بأن الألم ينشأ أثر تعدد وكثرة الحاجات - ومن ثم فمن الأفضل للانسان أن يطرد من أفكاره كل ما يشير في نفسه من خراجات أو انفعالات تبعث الألم في النفوس ، وعلى قدر تجنب الانسان للأفكار السيئة وبمدى احتفاظه للأفكار التي تتناسب مع قدرته وطاقاته وامكانياته كلما اقترب من جوهر السعادة بمضمونها الحقيقي الخالد .

وقد توصلت الفلسفة الأبيقورية الى أن البساطة في الحياة والاعتدال واستقرار النفوس والسيطرة على الرغبات والغرائز الجامحة وعدم السماح لها بالتحكم في السلوك الانساني ما يجعل أمام النفوس طلائع الخلاص من مظاهر الألم والأوهام وتعلو بها عن آفاق الضلال والانحراف والتعاسة .

وكلما عاش الانسان في ذكريات الأيام السعيدة الماضية كلما قلل من

مظاهر الألم التي تحاول أن تسيطر على وجدانه وعواطفه ، وعلى الانسان التخلي عن لذة عاجلة لها من الآثار ما يتبعها من ألم أكبر وعليه أن يتحمل الآلام الطارئة اذا ما كان يستتبعها لذة معينة . فالانسان يستمتع بذكرى اللذات الحاضرة ويستبشر باللذات القادمة . بحيث يتحتم عليه أن يكون معتدلا لأن الاعتدال في مفهومه فضيلة أخلاقية، لأن الانسان يمكنه الوقوف عند حدود اللذات التي اذا ما تعداها نتجت عنها آلام وشقاء .

مما سبق نستدل على أن تاريخ الأخلاق ما هو الا امتداد لفروع الفلسفات الانسانية . استهدفها بحوث الفلاسفة والمفكرين من أجل خلق قيم ثابتة أو معايير يستدل بها على مظاهر هذا الوجود ، وكذلك على مدى تكامن التقائم الجماعي تحت ظلال تلك المفاهيم والنظريات.

ولو تتبعنا مراحل تطور تلك النظريات الأخلاقية منذ وجودها ومرورها بمراحل الفكر اليوناني حتى انبثاق النزعات الخلقية في عصر النهضة ونضارب النظريات ما بين الحداثيين والتجريبيين والعقليين وظهور الاتجاهات العمالية في مجال الاخلاق والفلسفات الوضعية الى آخره — فما كان ذلك هو مجال بحثنا وانما تكتفي بما اقتطفناه من الفلسفات اليونانية المتباينة باعتبارها نابعة من دولة كانت نقطة ارتكاز ومصادر انبعاث اشاعات فكرية خالدة مازالت البحوث والنظريات الجديدة تعود اليها وتستند على أسسها وتعاليمها وان كانت تختلف معها في مظاهر السلوك تبعاً لظروف والأحوال الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية وغيرها :

ولا يمكننا أن نتقل من تلك المرحلة الى أخرى متقدمة عنها دون ان نتعرض لموقف الفلسفات الاخلاقية والديانات السماوية وانني لا اجد مجالاً يوفقنا في

الاسترسال في هذا البحث أجدى من التعرض للالزام الخلقى فى الدين الاسلامى نظرا لما جاءت به تعاليم القرآن فى مجال الأخلاق من قيم عظيمة وآفاق خالدة ليس بالنسبة للحياة العملية للمسلمين فحسب وانما للفئات البشرية بصفة عامة .

مبدأ الالزام

لاشك أن مبدأ الالزام عنصر أساسى أو محور تدور حوله القواعد الاخلاقية من حيث كونها عدة قواعد تلزم الأفراد باتباعها بأى صورة من الصور .

وبالقضاء على فكرة الالزام يقضى بهذا على جوهر الحياة الانسانية المستقرة التى تستهدفها الأخلاق نحو تحقيقها فاذا ما انعدم الالزام ترتب عنه انعدام المسؤولية وبالتالي تنشأت الآمال من حيث سمو الحق واعتلائه فى سماء البشرية .

وحول تلك الفكرة الالزامية يتوقف مدى فاعلية واستمرار أى نظام من النظم — فاذا لم تستتبع أى قاعدة أو قانون اداة الزامية مادية أو معنوية فان هذا ولاشك قد يؤدى الى تشتت تلك القواعد والأسس فى أجواز القضاء اللانهاية ومن ثم فاننا لانجد أثرا لكثير من المذاهب والمدارس والفلسفات الأخلاقية التى توالى ظهورها على مر الأجيال ولم يبق لها ذكرى أو قواعد مسطورة بينما نجد كثيرا من القوانين والقواعد الأخلاقية الوضعية لها من الفاعلية والمقدرة على الاستمرار والبقاء وارغام الفئات على الرضوخ اليها وذلك لما يتبعها من فروض عقابية لمن يتحرف عنها أو يتمرد عليها .

كما واننا قد نجد بعض الفلاسفة يتجهون الى الادماء بامكان قيام قواعد أخلاقية بدون جزاء ومنهم الفليسوف جويو ويستعيز عن فكرة الالزام الجزائي بفكرة التقدير الفنى المنبعث من النفس البشرية تحت توجيه الضمير ويستند فى ذلك على تربية حاسة الذوق : الفنى وملكات الاعجاب بالانفعال الصالحة وميل النفس البشرية نحو التمسك بالخصال الحميدة .

وقبل أن نتعرض لفكرة الالزام فى الدين الاسلامى سنحاول أن نقف على فكرة الالزام الخلقى المستمد من بعض المذاهب الاجتماعية والفلسفية .

* * *

الالزام الخلقى:

من الواضح أن هناك فى الطبيعة الانسانية من الفطرات والاستعدادات والميول ما يمكن تشكيلها وتطويرها بصورة تقربه من الكمال وتسمو بوجوده الى آفاق التحرر من قيود الشهوات والانقياد وراء الغرائز والسقوط فى أعماق الرذيلة والانحراف .

ولكن لخلق تلك النظم الضابطة للسلوك الانسانى يجب أن يكون هناك الزام خلقى يحد من الطغيان الغريزى ، وبعبارة أخرى توضع القيود التى لها من الامكانيات ما يمكنها من مقاومة الرغبات الجامحة والأهواء الشاردة، وتتمكن من توجيه السلوك الانسانى نحو ما تقتضيه الظروف والأوضاع الدينية والاجتماعية والقوانين الوصفية .

وبالتمعن في تلك القيود نجد أنها جميعها تلتقى نحو التطلع الى السكال
ومزاولة أعمال الفضيلة والخير ونحو خلق مثل عليا ومفاهيم خالدة تعتبر نبراسا
وهاديا للسلوك البشرى ومنارا يهتدى به الانسان في انطلاقه نحو التطور والارتقاء
بمظاهر حياته الاخلاقية .

ويتمثل الالزام في عدة نقاط :

اولا الفروض والقيود الاجتماعية

تتمثل تلك المفاهيم في مجموعة القيم والمبادئ والمعتقدات والقوانين والآداب
الشائعة في نطاق البيئة الاجتماعية والتي يقصد بها خلق فضائل أخلاقية تكون
بمثابة تعاليم للأجيال المتتابة والتي عن طريقها يتمكن الانسان من الوصول
الى المثل العليا المتكاملة ، وينسق بقواعدها مناهج حياته ومصيره وعلاقته
العامة .

ومن يشذ عنها يعتبر خارجا عن الانسجام الجماعى ويشذ عن السكيان
المحيط به حتى يصبح لمن يحيطون به حق استئصاله وابعاده عن حياتهم .

هذا بعكس ما يعود عليه في حالة التفاعل مع البيئة والاستجابة لتقاليدها
وتعاليمها فهذا ما يخول له حق الاعتلاء والتقدير من قبل افراد جماعته .

ثانيا الالزام القانونى:

نحو هذا الالزام أرى ان نقف وقفة عابرة من حيث القانون والأخلاق
ومدى الترابط والتلاقى بين قواعد كلاهما وبالتمعن في مضمون كل منهما

نجد أنهما يلتقيان معا حول القيم والمفاهيم الانسانية — فكل منهما يدعسو الى الامتثال لنواحي معينة في محتواها تستهدف الاستقرار والكمال والسعادة .

أما من حيث مصادر كل منهما نجد أنها تشترك في المنبع الطبيعي أو العرف المتفق عليه من حيث حساسية وجودها وباعتبارها ضرورة من ضرورات الحياة المستقرة والهادئة باختلاف مظاهرها، وكيمادى للعدالة وباءت خلق المشهور بالتضامن والتوفيق بين الافراد ويستهدفان مثلاً علياً تستوحى من الطبيعة وتكمن في سر الوجود .

فلو تتبعنا مراحل انبعثت فكرة القانون الطبيعي من الفكر اليونانى نجد أنه انبثق على أثر تشابه سلوك الفئات البشرية عامة في المجتمع بالرغم من اختلاف ميولهم ومشاريهم ومناطق وجودهم وظروف معيشتهم ولكنهم يلتقون حول محور واحد من حيث الصفات السلوكية هذا ما جعلهم يصلون بتفكيرهم على أن هذا التشابه يعود الى وجود مبادئ أساسية مثالية تسود في سائر المجتمعات وتلك المبادئ تتخلص في الضمير والشرف والاستقامة والفضلية الى غيرها من مكارم الأخلاق واشرفها .

وما لبث هؤلاء الفلاسفة أن وقفوا على تشابه وتلاقح نتائج تلك المشاهدات حتى انتهوا بتفكيرهم الى استخلاص علة ثبوتها وعدم تحولها وتغايرها — ومن ثم ابتدأت ملامح قانون أبدي راسخ لا يستبدل يأمر بالعدل والاحسان والتآخي وينهى عن الشر والانحراف والأنانية .

ومن هنا تسلم فقهاء الرومان هذه الفكرة وانتهوا بوصف القانون بأنه الهادى الى سبل العدل والخير والاستقامة واعطاء كل ذى حق حقه .

والقانون الطبيعي كما عبر عنه الاستاذ « محمد علي عرفه » في فلسفة القانون
« انه مجموعة المبادئ التي يهتدى اليها المرء بفطرته وينساق اليها بارشاد عقله
وهدي سليقته »

ولا يتسع المجال هنا لسرد مراحل تطور ونشوء القانون الطبيعي وانما
ينتهي بأن الانسان بطبيعته يميل الى استنباطها والرضوخ لتعاليمها وقواعدها
والاهتداء بضمياتها نحو تنظيم علاقاته من حيث فعل الخير واحترام النظم والابتعاد
عن الأفعال التي ينفر منها بفطرته أيضا لأنها إما أن تكون ضاربة بتلك المبادئ.
وإما أنها قد تعود عليه بضرر وإزاء للنفس .

ثم بالانتقال من القوانين الطبيعية الى القوانين الوضعية وهي ما نخضعها في
مجال بحثنا هذا نجد أنها في صورة قوانين وضعية تفرضها السلطة السياسية في
المجتمع بصورة عقوبات تفرض على كل من يشذ عليها أو ينحرف بسلوكه عنها
من أجل خلق الاستقرار والنظام في الهيئة الاجتماعية الحاوية له وهذا ما يمكن
ان نضفي عليه اسم القوانين الوضعية الاخلاقية .

ثالثا العقيدة الدينية :

وتتمثل في الامتثال للفروض والتعاليم الدينية لما لها من قدرة على الهداية
والتقويم وخلق الالتحام الروحي والمادى بين الفئات الخاضعة لها .

ولا يمكن أن تبلور مظاهر تلك العقيدة في النفوس البشرية وتنعكس
آثار قيمتها وتعاليمها في سلوكها الا اذا كان هناك ايمان بالامور التي لاتدرکها
الحواس. كالشئون الالهية والعوالم الروحية والايمان بجميع الأنبياء والمرسلين

والاعتقاد بخلود الروح واليوم الآخر اعتقادا لا تشوبه شائبة من شك - ومن خلال هذا الايمان يجب أن يكون هناك تقربا ذاتيا نحو العمل الصالح في شتى المجالات والتي تنص عليها التعاليم السماوية والرسالات الدينية التي ارسلها الله للناس هاديا وموفقا ومصالحا لهم ولشؤونهم سواء أكان هذا في الدنيا أو الآخرة .

وعليه فليس هناك سند أقوى من الرجوع الى النزعة والعقيدة الدينية لدفع الفئات الشعبية نحو الامتثال للتعاليم والقواعد الأخلاقية التي هي جزء لا يتجزأ من التعاليم الدينية التي تعتبر هاديا ونبراسا للانسانية عامة .

وكما أن الامتثال للعبادة والخضوع للايمان لهما في الواقع من المقومات ذات الآثار الفعالة الخالدة من حيث مدى تأثيرها على السلوك ومن حيث كون الانسان مخلوقا به ثغرات من الضعف يحتاج لتكميلها من الرعاية والهداية فنراه ينزع بطبيعته لكي يستمد من قدرة الخالق ما يقوى به نفسه ويكمل به مظاهر ضعفه وقصوره . وهكذا أيضا الحال فنيجد هذا الانسان ينزع بغريزته نحو القواعد الأخلاقية يلتمس منها العون ويهتدى بقواعدها على أن التمرد والانحراف أمور تتنافى مع الطبيعة الانسانية المسالمة وتنفر منها النفوس المتكاملة السليمة .

وبالتمعن في تعاليم القرآن نجد أنها تلتهج منهجا موفقا من حيث مبدأ الالتزام الخلقى للفئات البشرية ، فقد جاءت التعاليم في كتاب الله واضحة شفافة يسهل على العقول تداركها واستنباط تعاليمها - وقد جاءت التعاليم الاخلاقية في القرآن بصورة دقيقة متكاملة تستجيب لمتطلبات الطبيعة الانسانية بفرائضها

المعباينة . هادلة فى حدود طاقت وامكانيات النفس البشرية ومدي قدرتها فى السيطرة والتحكم فى الدوافع والغرائز والميول المتعددة ثم تركت للنفس حرية التدبر وحرية الاختيار والتصرف فى نطاق تلك التفاصيل وتبعها لتغاير ظروف الحياة .

وواجب المؤمن حىال هذا أن يتبين معالم طريقه ويندفع الى ما يقربه ويتفق وأوامر الله . وعليه بالتالى أن ينوء عن الأعمال التى تجعله عرضة للانزلاق فى الرذيلة والانحراف .

وهكذا نرى الانسان وقد أصبح ملزما فى سلوكه بتلك الفروض الدينية والاجتماعية والسياسية التى تصدر عن خارج ذاته - وقد يكون هذا الالتزام نابعا من عقله وضميره الكامن فى أعماقه يفرض على نفسه أن يتروى فى سلوكه ويخضع لعقله المفكر وحسن تقديره بحيث يزاول أعمال الخير ويتعد عن كل ما هو فى مضمونه شر .

وهذا الالتزام النابع من الذات الانسانية يمكن ادراكه وتنميته بالممارسة والاختيار والارتقاء بحواس التذوق المعبر عن ملكات عقلية تستهدف معايرة كل المظاهر التى تحيط بالانسانية .

الانسان كائن اجتماعي

ليس ثمة شك أن هناك من يجهل ما فطرت عليه الطبيعة البشرية من حب الألفة والمعاشرة ، كذلك ما جذبت عليه النفس من ميل طبيعي وغريزي نحو الاندفاع والاندماج في الحياة الاجتماعية ، فليس هناك أقسى على النفس البشرية من حياة العزلة والافتصال عن المجتمع .

وتقوم تلك العلاقة التي تربط الانسان بالجماعة الحاوية له على عدة روابط تتمثل في روابط اللغة الواحدة والعادات المشتركة والقيم التي يستجيب لها الجميع برغبة جماعية هذا الى جانب ارتباطهم بولاء واحد وخضوعهم للحكومة قومية واحدة .

والانسان ككائن نايض بالحياة له بعض المميزات والخواص التي يختص بها دون باقي المخلوقات وان كانت توجد في بعضها الا أنها تكون في صور ناقصة غير متكاملة الجوانب والأركان .

ف نجد الحيوان محكوما بغريزته الفطرية بينما الانسان محكوما بعقله وذلكائه وهما يعتبران عاملان أساسيان نحو ضبط السلوك البشري وتعديله وتوجيهه .

وقدرة الانسان على النطق واخراج حروف مترابطة ذات معان معينة

جعلته قادرا على الانصال بباقي عشيرته بلغة داركة يسهل التفاهم بها في نطاق بيئة بحيث يتمكن الجميع من تناقل الأفكار والمعاني ، وتوارث التراث الفكري من جماعة لاخرى ومن جيل لآخر ما يمكنه من خلوده وبقائه على مر الأجيال وربط الأفكار والمعرفة برابط متصل وثيق .

والانسان قادر على نقل المعرفة من مجرد الاحساس بها الى الواقع المادى ثم استخدام نتائجها بصورة عملية متطورة حتى تمكن من السيطرة على الظروف الطبيعية وتستخير مظاهرها من أجل استكمال وجوده واسباب رفاهيته .

واقعد كان وجود الانسان بتلك الملكات ظاهرة طبيعية ولكنها في الواقع تحتاج لظروف وامكانيات معينة لتمكين الانسان الفرد بالاحتفاظ بها وتطويرها — ومن هنا جاءت حتمية الالتقاء الجماعى لكي يصبح الفرد كائنا اجتماعيا .

ففى اللقاء الجماعى وحده يتمكن الانسان من تنمية الصفات والمظاهر التى تجعل منه انسانا حقيقيا وتؤكد تلك الحقيقة — كما وأن تلك الصفات التى تخلد الكيان الانسانى السامى من تسامح ومحبة واحسان ورحمة وايتار وتضامن ... الخ .

لا يمكن بأى حال من الاحوال أن تنجلي وتبدو واضحة راسبة ما بين جدران العزلة والرهبة وانما لابد من أن تتوافر لها الظروف المعينة والبيئة المناسبة التى يمكن أن تتداول فيها تلك الصفات الخالدة .

وعليه فالبيئة الاجتماعية هى الأداة التى يكتسب بها الفرد وجوده وعاداته وتصبح له شخصية انسانية خاصة هى انعكاس لبيئته ومجتمعه .

وعليه فالتكوين الاجتماعى يكون بصورة متكاملة اذا ما كانت تلك الجماعات المكونة له ترتبط مع بعضها بعلاقات، منتظمة حتى تتمكن من خلق الوحدة الاجتماعية وهذا لن يتأتى الا عن طريق اللام بالمعرفة الإنسانية التى يجب أن تتضمن معرفة الإنسان لنفسه ثم معرفته لبيئته .

الفرد في المجتمع

وإذا ما نظرنا الى الغريزة الاجتماعية نظرة أعم وأشمل نجد أنها لا تقتصر على مجرد ما انطبع في النفس من ميل فطري للاندماج في وسط المجتمع فحسب وإنما تمتد الى أبعاد أعمق في داخل النفس البشرية تتبلور في استعدادات معينة لتلقى تعاليمه والتأثر بتقاليده وأساليبه ومفاهيمه العامة والخاصة . وبالرغم من أنها قد تجد من حريته وانطلاقه واستقلاله ولكننا نجد منقاداً نحوها بصورة لا إرادية .

ومن الواضح أن مهمة الفرد لا تنحصر بمجرد انضمامه الى بيئة اجتماعية وإنما تمتد الى آفاق أبعد من هذا وترى الى غرض أسمى بكثير ألا ودو الاندماج الجزئي والكل في هذا الالتقاء الكبير مكوناً كلا متكاملًا بحيث يتبادل معه التأثير والأنصال ويستمد من المجتمع مظاهر استكمال وجوده ويمده كذلك بمظاهر الاستقرار والكمال ويصبح الكل وحدة متماسكة محكمة النظام .

ومن هنا جاء أثر اعتماد الفرد في تدبير شئون حياته المعبانية على نظام الجماعة في حد ذاتها من حيث التأثير على عقليته وميوله وطبعها بطابع الجماعة السائد بميزاتها ولونها الخاص ، ومن خلال الصلات والعلاقات القائمة بين الفرد والبيئة الاجتماعية التي يعيش بها تنبثق مظاهر المعرفة والتأثر الوجداني وتنبور معالم الغريزة الاجتماعية التي تنعكس بالتالي على كثير من مظاهر السلوك الانساني الغريزي الذي يتمثل في استعداد الفرد وميله لحب العشرة والاندماج السكلي والجزئي مع باقي عشيرته .

وطالما وارت الآداب العامة والقيود المنظمة للسلوك الانساني خلال
بيئته الاجتماعية هي وليدة حتمية لهذا الالتقاء لما لها من قدرة وامكانيات للحفاظ
على استقراره واستمراره وتبعاً لكون تلك النظم والقوانين قد استقرت بناء
وعلى رغبة الافراد وتقبلهم للتلقائي للتقيد وكبت بعض حرياتهم فهذا ولا شك
قد يبين لنا مدى اصرار الانسان للالتقاء الجماعي ، وخضوع الافراد لآداب
المجتمع وقيوده التي تفرض عليه لتعسد أقوى المظاهر والاستدلالات للفرصة
الاجتماعية الكامنة في النفوس البشرية ومدى اختصاص بني الانسان بتلك النزعة
المقدسة المتمثلة في قابلية الفرد لاعتناق تعاليم المجتمع وقابليته نحو الاستجابة
لعقائده وعاداته المتوارثة .

ومن هنا يجب الا ننظر للفرد على أنه مجرد كائن منعزل عن المجتمع وانما
كعنصر صغير يتفاعل مع كل كبير ، وباعتبار أن الخلق الاجتماعي لا يمكن أن
يتم أو يتطور الا بتفاعل الفرد مع المجتمع الذي تكون نتيجة تلاقى افراده في
تجمعات تربطهم أهداف لها من الثبات والاستقرار بحيث جعلهم يشعرون
بالتجانس وحتمية الامتزاج الروحي والمادي من أجل تحقيق أهداف مشتركة
يتمثل في اعتقادهم بأن الخير الأعلى لن يتحقق الا بقدر تقرب سلوك كل منهم
الى أعلا درجات الكمال والارتقاء ، وان اختلفت تلك الصورة التي يختص بها
مبدأ الخير الأعلى في حد ذاته من حيث وجوده المادي من مجتمع لآخر ألا أنها
تلتقي جميعها في جوهرها السامي من حيث الأفعال المستلزمة لتحقيق السكال
المثالي المهادف الى خير الانسان ورفاهيته والذي هو بالتالي غاية الوجود
الانساني والغاية العليا المتكاملة لجهوده وطاقاته على مر الأجيال
والسنين .

وعلى ضوء هذه الفكرة المبسطة عن حقيقة الانسان الاجتماعية تتحدد

معالم العلاقات العامة والنظم التي تربط ما بين أبناء المجتمع الواحد وتحدد معالم سلوك كل منهم حيال بيئته والواجبات الانسانية العامة التي يتمكن يا شعاعاتها من تحقيق حياة ممتعة متكاملة لكل انسان وشعور حقيقي بمزايا الانسانية في أعدل صورها وأكملها وكذلك يتمكن من تحقيق كافة القيم الانسانية والمفاهيم الاجتماعية والروحية في نطاق المجتمع .

ومما لا جدل فيه بانه لكي يتم خلق ذلك الاستقرار والتكامل في نطاق البيئة الاجتماعية يتحتم لتلك النظم والقوانين الهادفة لتنظيم العلاقات الداخلية والتوفيق بينها واجبار الفئات على احترامها والرضوخ لها أن تكون لديها من المرونة ما تمكنها من الاستجابة للغرائز الانسانية بتباين صورها وتغايرها من فرد لآخر ومن بيئة لأخرى .

فإذا ما كانت تحتوي في مضمونها على ما يحقق المتطلبات الأساسية للانسانية فلا شك أنها ستقتن بالدوام والاستقرار والفاعلية ويضفي عليها انماط من الوقار والثبات ما يمكنها من تحقيق غايتها السامية وهدفها الابدى .

ولكن يحق لنا أن نقف وقفة قصيرة لتساءل . ماذا بعد أن تدارك الانسان مكوناته الفطرية وميوله الغريزية واستعداده للاستجابة الى النظم التي توفق بين مطالبه وبين الوعاء البشرى الحاوى له ، وكذلك عن مدى تلاحمه بالقيم الاخلاقية الانسانية التي تلاقت جميعها للسمو بالانسان ذاته باعتباره هدف الحياة وكيان الوجود وغايته .

وقد ظل الانسان في صراع دائم كلما شعر بالاستقرار في الحياة . فاما تعثر وتفرض الحياة نفسها عليه واما يسيرها على أثر دوافع وميول

تابعة من ذاته . . .

وهكذا كان صراعه دائما مستمرا وكفاحه لا ينتهى منذ وجوده الاول الى يومنا هذا .

ومن خلال بحثنا هذا سنتناول بصفة افتراضية الصراع الانسانى على مرحلتين .

أولا : الصراع الانسانى المادى

ثانيا : الصراع الانسانى الروحى

الصراع الانساني المادى

فلا انسان منذ وجوده فى صراع دائب ومحاولات مستمرة من أجل تطوير وسائل معيشته المادية وخلق سبل الرفاهية التى تعبر فى حد ذاتها عن معان نسبية تختلف من عصر الى عصر وتفاوت من مجتمع لآخر . وكانت استجابات الانسان فى الوقت نفسه للحواجز الماثلة لبيئته الذاتية متماثلة طبقا للحاجات المادية الطارئة . ولا ريب انه عبر تلك الصراعات كلن الانسان يتصدى لظواهر الطبيعية والأحداث العابرة محاولا ان يستشف خلالها هذا الوجود الشبه مستقر والذي كان ينطلق نحوه اما بصورة ارادية أو لا شعورية .

وتاريخ البشرية فيما قبل التاريخ يعبر عن المرحلة الاولى للحياة الانسانية مرحلة تتصف بالبداية اذ كان الانسان لا يزال يعيش أينما وجد سواء فى الغابات الحارة او الوديان معتصما بالاشجار خشية الضواري ، واستجابة لحاجته ومتطلباته الاساسية متخذاً من فاكهتها طعاماً له

واننا لو تتبعنا المخلفات والآثار التى تركتها البشرية على مر السنين والأجيال نجد أنها تمثل صفحات مدونة تحوى سطورها على سجلا معبرا عن تاريخ هذا الصراع ومراحل تطوره .

فنجد أن هناك مخلفات أثرية تركها الانسان الاول « الانسان الناقص »

وما لبث أن ابتدأ الانسان في هجرة منطقة وجوده وابتدأ يحترك بما يحاوره فكان احتكاكه بالبحر والأنهار أدى الى معرفة السمك ثم توصل الى اشعال النار بطريقه بدائية ليشوى عليها السمك واللحوم حتى توصل الى استخدام التراب الساخن واتخاذ الطين غطاء للأخشاب والأوعية وقاية لها من النار ثم توصل بعد ذلك لاستخدام الطين في البناء بعد وضعه في النار وهكذا حتى جاء العصر النيوليتيكي (عصر الحجر الجديد) حينما أدرك الانسان الزراعة واستنبت الأراضى واستئناس الحيوانات وابتدأت الجموع البشرية تتلاقى تبعاً للموارد الطبيعية ومصادرها وخرج الانسان من مجتمه البدائي والذي كان يستعمل فيه الأدوات اللازمة لمعيشته من الحجر على أساس أنها مواد يبرز وجودها فوق سطح الأرض وتطورت تلك الأدوات من مجرد صنعها بالحك وكونها خشنة غير مصقولة وضخمة لا فن فيها والسلاح مجرد شحفة من الحجر تستدق من الطرف حتى أصبحت تصنع بالضغط عوضاً على الحك وتطورت تلك الأدوات البدائية الى القوس وآلات تثقيب العيبدان والرماح والحربة والابرة العاجية (١) وكانت بصورة أكثر تقدماً دقيقة في صنعها على نقيض صناعة الأدوات في المدة الاولى من عصر الحجر الباليوليتيكي القديم .

وهكذا تعاقبت العصور ولا يتسع مجال بحثنا هذا للاسترسال في مظاهر التطور الذي لاحق هذا التعاقب والجهود البشرية التي بذلت خلاله ولكننا نستدل على أنه عند ظهور الانسان الاول وهو في صراع من أجل تطوير امكانياته ووسائل معيشته المادية والتي تعبر في مضمونها عن مدى اصرار الانسانية نحو التطوير والارتقاء والتسامي بوجودها من ما هو أدنى الى آفاق

(١) مقالات للدكتور سليمان حزين

تعاونها وتتميز عنها بالرقى والتقدم . وان كان هذا يعبر عن شيء فما هو إلا بلورة وتأصيل للنفس البشرية وغريزتها في الارتقاء واصرارها على قهر الصعاب وتذليل العقبات التي تعترض طريقها وتعرقل تقدمها وانطلاقها نحو حياة أفضل متكاملة وفي الواقع أن تطور النضال الانساني منذ وجوده الأول حتى يومنا هذا لا يمكن أن تختص بتناجها فئة معينة وانما هي في الواقع نتاج الجهود مشتركة ساهمت فيها البشرية على مر السنين والأجيال على الرغم من تفرقها فوق هذا الكوكب ويتباين حضاراتها وثقافتها ومدنيتها .

ومن هنا نستدل على أن الانسان منذ وجوده وهو في صراع ومحاولات جادة من أجل تحقيق واقعه المادى وتستخيره من أجل اشباع وتحقيق متطلبات وجوده المادية .

الصراع الانساني الروحي

ظل هكذا حال الانسانية من حيث بحثها وراء تطوير واقعها المادي ، وجعل المادة وانعكاساتها الملموسة مجال للبحث والتفكير - الى أن ابعدا في البحث وراء حقيقة من هو ؟ ولماذا وجد ؟؟ ولماذا يشقى وما هي الحقيقة التي تعبر عن وجوده ويطالبه ؟ وما هي غاية وجوده والصور التي تتكامل بها مظاهره وتبعث في نفسه بالاستقرار والهدوء والسعادة . ؟

تلك الاسئلة التي اتجه نحوها الفكر الانساني بالبحث والتمحيص من أجل إيجاد واستنباط حلول لها لتبعث الاستقرار في النفوس والراحة في الصدور ، فنجد انها قد خلقت تشتيبا في الافكار واضطرابات في النفوس نظرا لوقوف الانسان امامها وقفة عاجزة محدودة لا يجد أمامه إلا بعض التفسيرات القطعية المحدودة وان كانت الثغرات الموجودة في النفس البشرية القلقة المتلهفة للمعرفة واليقين .

ومن هنا أبتدأ الفكر الانساني في محاولات جادة مستمرة لاستنباطه مظاهر وجوده وتعليل هذا الترابط ما بين ذاته المادية المعبرة عن الانعكاسات الخارجية للمادة والطبيعة وكيانه الروحي المعبر عن المطلق والروح واللامحدود . واعتمد الانسان في هذا المنهج على عقله واحساساته ووجدانه ولكنه لا يجد لها الطريق الحقيقي أو الاستدلالات المنطقية وانما يدرك في أعماقه أنه يعيش في عالم مجهول

تترامى أطرافه الى ما لا نهاية ، وفي نفس الوقت لا يستطيع أن يتنكر أمام تلك الحقيقة أو يقف حيالها بالسلبية والجهود وإنما استلزم عليه واقعه ان يجد لها من التفسيرات والمدلولات المتكاملة المعبرة بوضوح وعمق وصراحة .

ومن ثم فطالما أن تلك النتائج لا يتوصل اليها الانسان الا عن طريق التعقل والمعرفة والاحتكاك فماذا يفعل هذا العقل في عالم لا نهائى مضطرب تموج منه التفسيرات والتعليقات والبراهين وتتضارب فيما بينها ويستند كل منها في منهجه على قواعد ونظم معينة تخضع كل منها لظروف معينة وتتفاوت من مجتمع لآخر وعن بيئة لآخرى حتى وانها تتفاوت وتضطرب فيما بينها خلال المجتمع الواحد فحسب .

ومن هنا تنبثق حتمية خلق وتشكيل قيم ومفاهيم عامة لها من المرونة ما يجعلها قادرة على تكيف نفسها طبقا لاحتياجات البشر وطبائعهم المتباينة وأن تتضمن في محتواها اجابات منطقية لتلك التساءلات التي تسببت في اضطراب النفس البشرية وتمكن الانسان الفرد من التعبير عن ذاته وتوصله الى الآفاق والحدود التي بموجبها يتمكن من تحديد مكانه في الارض ، كذلك لها القدرة على ازالة كافة العقبات التي تعترض طريق التقدم الروحي للبشرية عامة .

كما وانه لكي تكون تلك القيم بها تلك القدرات باعتبارها معايير للمنهج الفكرى للانسانية والحكم عليه من حيث مدى تحقيقه للغاية المنشودة وبأساليب موفقة سليمة بحيث أن تكون معبرة في نفس الوقت عن ذلك الجانب الوجداني الخالد ذي الخصائص المعينة والمطالب الذاتية وتتفق أساليبها وطبيعة هذا الوجدان وتؤدي بدورها نحو خلق شعور بالتضامن والالتقاء حول المصالح المشتركة بين جميع الناس ويمكن أن نقف وقفة قصيرة لتساءل هل توافرت تلك القيم والمفاهيم

التكاملية لسلالات انسانية على مر السنين واحدثت هتم انما هذا من اجل اننا نرى في شكاية
مظاهر الحياة؟؟ وبالطبع لا يكون لدينا اجابة على هذا السؤال إلا بالنفي ، لان
الانسان في نفسه موجود في الطبيعة ، فمما نرى في الطبيعة هو ما نرى في الانسان من أخلاقه وحواسه
تنظيم حيااتها في الفوق في بيئته وتوحيدها في بيئتها

منه وخلق تناسلها في الطبيعة وتطور من شكل في شكلها حتى ما نرى في الانسان من
بالاعتماد على المعادة والاعتماد على النفس في الكمال في نفسه وكل شيء في الانسان في الكمال
السعادة بزواجة معينة ورأى خاص ويستهدف بمنطقة اشباع نزعة معينة في ذلك العمل
النفس وعن طريق الاشباع تسود تلك النزعة على باقي النزعات وتصبح النفس
أسيرة لها خاضعة لتطلعاتها

لكنه يمكن عمل الطبيعة البشرية في السواء وهل انما السواء في الاشياء
تتلاقى جميعا على نمط واحد لا يتغير وهل انما في الانسان بماله وبما هو عليه
لا يتطلع الى المزيد ؟ ذلك هو محور الصراع الانساني في كل في دائرة وجوده له
أبعادا ساطعة واجتماعيات محاطة لا يمكن ان يخرج عنها الانسان في كل شيء في الكمال
والانحراف الى ما يظن ان له في نفسه في كل شيء في الكمال والاعتماد على النفس في الكمال
بالحق والصدق وتسمى هذه الامور في الطبيعة خاصة في الانسان في الكمال في الكمال
وسلوته في الطبيعة خاصة

في هذه الحالة في الكمال والاعتماد على النفس في الكمال والاعتماد على النفس في الكمال
ما يسد به ريقه ويحميه من تقلبات الطبيعة وشروك الزمن والذي يقطن في الانحاء
الفقيرة وتحد من اطلاقه وتفكيره جدران العزلة والحرمان ، ليس أمامه أى أمل
من غير ان يلقى نوع من انواع النكاح في الكمال

ومثل هؤلاء المعزين قد صرهم البؤس وشردهم الشقاء لا يعرفون على

من يقع اللوم ومن المتسبب في وجودهم هذا . فهل هو القدر أم هو الانسان ؟

الحقيقة أن الصراع الروحي بين الانسانية عامة هو الذي يوجد مثل تلك الحالات فكل انسان يضع لنفسه القيم والمفاهيم الخاصة متى تلائم ظروفه وتعبر عن متطلباته وتمكنه من الوصول اليها بما يتوفر لديه من امكانيات وقدرات ، وبالتالي فكل يحاول أن يعبر عن نفسه ويحقق متطلباته ويؤمن نفسه ضد الحرمان والشقاء ويوفر له مستقبلا مشرقا يحقق فيه غاية سعيه له ولاسرته من بعده .

ومن هنا ينشأ الصراع وتتصادم الرغبات وتتشتت القيم والمفاهيم .

وقد جاءت الأديان السماوية لتكون للبشرية هادية وضياء لها يسترشد بها الانسان في وضع تلك القيم والمفاهيم .

كما وأن الأديان السماوية لا تكتفي بالتعرض لمضمون الوجود الانساني بل انطلقت في وضع مقاييس للمطالب الانسانية من حيث حتمية توافر الرخاء المادي وشمول الخير الروحي وتستهدف تحقيق السعادة للجميع ، وتؤمن بأن النظم والعلاقات ينبغي أن تحدد على أساس مبدأ التزام الحق وتجنب الارهاب والاستغلال كما وانها تؤمن ايمانا عميقا وتصرف في الدعوة بان التآلف والتآخي بين الفئات الشعبية له القدرة على البقاء وتقارب الناس الى بعضهم وتمكنهم من خلق مجتمع تسوده الحرية والمساواة والعدل .

كما واننا لا نستطيع أن نذكر تلك الآثار الخالدة التي عادت على الانسانية من انبثاق الفلسفات القديمة المتعددة ومدى تأثيرها على العقول وتنبئة الاحساسات

واثارة العواطف لتلقى الرسائل السماوية والتفاعل معها والتأثر بتعاليمها المخالدة
 المتكاملة ، وبالرغم من تلك المفاهيم والمطالب الأساسية التي توصل اليها الإنسان
 من خلال الفكر والمنطق الفلسفي وأكادتها كافة الأديان والتعاليم السماوية نرى
 أن الإنسان له من الدوافع والبواعث التي تجعله يثور ويضطرب ولا يستطيع
 أن يحقق مطالبه وحاجاته التي يشعر بحساسيتها من حيث مساهمتها في شعوره
 بإنسانيته ووجوده وطالما أن المجتمع يتكون من فئات متباينة ذات مصالح
 متضاربة وحاجات متنافرة تجعل كل فرد مستقلاً بآرائه وسلوكه في بيئته
 الاجتماعية فإن هذا يستتبع اضطراب نفسي وعدم استقرار لأنه سوف لانكون
 هناك حدود أو أبعاد للمطالب الإنسانية بل ستصبح نسبية غير مستقرة ويصبح
 مبدأ تحقيق المطالب غير مناسب لحاجة الفرد ومن هنا تصبح غاية الحياة الإنسانية
 نسبية لا حدود لها وكلما ارتقى سلم المدينة استحال ارضاء وتحقيق مطالب أى
 كائن اجتماعى دون أن يكون هناك تقدير واعتبار لمطالب الذين يحيطون به.

ما وراء الصراع الانساني

الانسان منذ وجوده وهو في صراع دائم تارة مع الطبيعة وتارات أخرى مع نفسه ومن يجاوره فلماذا يثور الانسان وما هي البواعث التي تشير من انفعالاته وتجعله يثور وينطلق هائجا لا يدري له غاية أو حدود يتصادم بأى شىء يعترض انطلاقه أو يقف عثرة في طريقه .

فمنذ بدء الخليقة والانسان هائم يعيش في فراغ كبير وسؤال يضطرب في أعماقه ماهى غاية وجوده والى أين يسير ؟؟ هذا السؤال جعله يتخبط في سلوكه ويتراجع في مطالبه ويعلو بتفكيره الى آفاق لا نهائية فكلما انتقد انه قد وصل الى حدودها ظهرت له آفاق بعيدة تجذبه اليها وتجعله ينطلق نحوها حتى ولو كان يسلك سلوكا يتعارض بالحدود التي توضع له من خلال بيئة الاجتماعية .

هكذا يسير الإنسان تارة ضد الطبيعة وتارة ضد نفسه ، ومما لا شك انه كلما تطور تفكير الانسانى وازدادت معارفه وادراكه لنفسه كلما ازدادت ثورته واتسع بالتالى الفراغ الذى يحيط به .

ثم نعود لسؤالنا . لماذا يثور الانسان ؟ فهل يثور لمجرد اشباع دوافع ذاتية تجبره على الثورة والتمرد أم أنه استعداد فطرى فى الانسان للفوضى أم أنه يثور لمجرد الحصول على حاجة معينة ثم يعود للاستقرار والمهدوء أم أن تلك الثورة مجرد تعبير عن طاقة فائضة فى نفسه لا يستطيع إخراجها الا بتلك الوسيلة . وأخيرا هل يثور الانسان وهو لا يعين ولا يدرك أنه يثور ؟ .

تلك النساء لات تدفعنا لكي نلقى نظرة على حقيقة نفس الإنسان وأبعاد فكره وعواطفه حتى نتمكن من الوقوف على أصول ثورته وانفعالاته وبواعثها الحقيقية .

ولا ريب أن مشكلة الإنسان هي الوسيلة التي تمكنه من ادراك نفسه طالما أنه لا يستطيع أن يدرك جوهره وحقيقته .

وبالتمعن في حقيقة الإنسان نجد أنه يتكون من الناحية البيولوجية من خلايا وأنسجة وأعصاب وهذا التكوين العضوي يحتاج لاستمراره في الحياة والنمو الى متطلبات أساسية إذا ما حرم منها أدى ذلك الى اضمحلاله وفنائه . فالجسم من حيث تكوينه من مادة وروح يحتاج الى متطلبات خاصة من غذاء وهواء ومأوى ومن حيث الجانب الروحي أو النفسى فله أيضا متطلبات خاصة ودوافع داخلية وغرائز واحساسات تملئ على هذا الكائن الحي اشباعها من حيث الشعور بالأطمئنان وحب البقاء والسيطرة والتملك والأنانية ... الخ .

ومن ثم فالإنسان يسعى جاهدا شعوريا أولا إراديا نحو تحقيق هذا الوجود المادى والروحي على السواء .

ومن أجل تحقيق هذا الوجود يسلك الإنسان سلوكا يؤمن في أعماقه بأنه سيؤدى به الى تحقيق تلك المطالب والأحاسيس ويبدأ في وضع قيم ومفاهيم خاصة تعبر في مضمونها عن نفسه ومصالحه .

ابتدأت بفكرة ودوافع داخلية وبواعث خارجية جالت في أعماقه ثم تشكلت وأخذت طابعها وأركانها وصبغاتها .

ومن ثم فإن تلك المساهم والقيم والشعارات التي يشكلها لنفسه ستعتمد

بصفة ابتدائية على مدى قدرته على الإدراك والتفهم والتقدير .

وطالما أن الصفات الانسانية وخصائص السلوك البشرية تتنوع خلال المجتمع الواحد من فرد الى فرد ومن مستوى الى آخرى فإن الآراء تتضارب والمصالح تتصادم وتشتت سلوك كل فرد أمام الآخر ويحدث الصراع الذى لا منر من وجوده إزاء تلك الأوضاع المضطربة .

ومن هنا ولكى نتمكن من ملاحظة هذا الصراع والقضاء على هذا الاضطراب يجب أن توحد الغايات وتوفق ما بين الفئات وذلك عن طريق قيم ومفاهيم تحد من الطغيان وأن تكون ضابطة وحابكة للسلوك الفردى خلال البيئة الاجتماعية .

وهنا نتساءل كيف تتمسك تلك القيم والمفاهيم من أن تخلق الاستقرار والهدوء فى المجتمع الإنسانى؟؟

فما لا شك فيه أن الإنسان دائماً وأبدا يسير وراء الحلول التى تتضمن فى محتواها استجابات موفقة منطقية كاملة تعبر عن حقيقة الواقع الإنسانى ومتطلباته كما وأن القيم والمفاهيم والنظم السياسية لم تأت الى الواقع المادى بمحض الصدفة أو بطريقة لا إرادية ، وإنما جاءت استجابة لحقيقة الذات الانسانية وتلفها الى حياة الاستقرار والسعادة كما وانها جاءت كرد فعل لاندفاع الفئات الانسانية لحياة النوضى والهمجية واللاإنسانية .

وهكذا فالإنسان بطبيعته ميسال للاستقرار والهدوء . وعليه لى يجعل ذلك الانسان ينقاد الى تلك الشعارات والقيم والمبادئ التى ترفع لتنظيم حياته وتوفق ما بين علاقاته العامة يجب أن تكون تلك النظريات والقيم ذات نظرة أيحيية للواقع الإنسانى من حيث ارتباطها بالواقع المادى والروحى على السواء وأن تتمثل فيها الفضائل والقيم الأخلاقية المتوارثة على مر الأجيال كما يجب

أن لا تحمل في محتواها متناقضات لأوضاع معينة وإنما يجب أن تكون قائمة على التوفيق ما بين النظريات الروحية والأخلاقية التي تعبر في مكنونها عن حقيقة النفس البشرية فإذا ما كانت تلك المفاهيم تعبر عن الواقع المادى فحسب فانها دون شك تعلقو بالمادة على الإنسان وتمجدها عن الكيان الإنسانى عامة . وهذا ما يتنافى والقواعد الالهية والطبيعية التي فطر عليها الانسان منذ وجوده .

أما اذا كانت المفاهيم تعبر عن الروح فحسب فانها لا تكون إلا شعارات خيالية تنأى بالإنسان عن واقعه المادى المحسوس وتسلو به الى آفاق الخيال والأحلام ولا تستجيب في مضمونها لواقع التجربة والوجود .

وعليه فيجب أن تكون المفاهيم والفلسفات والقيم التي تنظم العلاقات الانسانية لتستجيب في واقعها الى الكيان المادى والروحي للإنسان وأن تكون قادرة على تحقيق جوهر الوجود الإنسانى وخلق الإستقرار والهدوء والسلام في المجتمع كما وانها يجب أن تمجد الإنسان في الأرض وتنظر اليه نظرة اجلال وتقدير وأن تكون قائمة على أسس من التقارب والمشاركة المادية والوجدانية للفئات الشعبية على السواء حتى يتمكن كل فرد من أن يشعر بأن تلك القيم والمفاهيم هي في نفس الوقت ما نصبو اليها نفسه الانسانية وفي نفس الوقت تعبر عن حقيقة احساساته ومشاعره وعواطفه وتستجيب الى كافة متطلباته واحتياجاته التي التي تمكنه من الشعور بآدميته وانسانيته في الارض .

وبهذا يتمكن من القضاء على الصراع الإنسانى ويصبح بديلا عنه التوافق والتضامن والتلاقى بين الفئات الانسانية عامة .

وعن طريق الاسترسال في تتبع مراحل تطور الملكيات منذ بدء الخليقة حتى ابتداء ظهور الفلسفات والأفكار التي جعلته اظواهر الملكية أو ضياع خاصة ومسميات متباينة يمكننا أن نستدل على أعماق الدوافع والمؤثرات التي تتسبب في خلق الصراع ما بين بنى الانسان والأرض .

تطور المملوكيات الفردية

منذ أن وجدت المجتمعات البشرية ونظام الملكية الشائع يسود وجودها وكانت وسائل الانتاج المختلفة ملكا للجميع على السواء تقسم منتجاتها فيما بينهم بأقساط متساوية حتى تأصبات عادة تقسيم كل شيء إلى أجزاء متساوية لدى الشعوب البدائية وأصبحت نهجا أصيلا متعمقا في نفوسهم وتميزا خاصا لسلوهم نظرا لما كانت عليه منتجات العمل اليومي لانكاد تكفي لاشباع حاجات الأفراد وكانت عمليات اقتناص الحيوانات والزراعة تتم بأسلوب جماعي ونتاج هذه العمليات يقسم على كل من شارك فيه .

وكانت تلك الجماعات تجوب الأقفار وتركب الصعاب سعيا وراء الرزق تارة بالصيد أو بمجرد الاقتناع بما تقدمه اليهم الطبيعة من ثمار ونباتات . . الخ ومالبت أن ازداد تعداد تلك العشائر وتضخم إلى الحد الذي لايسمح بالاستمرار والتجول والاستناد إلى ثمار حياة الترحال والانتقال من مكان لآخر ودفعهم مزايا العمل الجماعي إلى الاستمرار في منطقة تتوافر فيها الحاجات الأساسية لاستمرار وجودهم كرقعة من الأرض تصلح للزراعة البدائية وتضاربها تصلح لسكنى ترعى فيها حيواناتهم التي تعتبر لحومها غذاء لهم وفراءها لباسا يقيهم التقلبات الطبيعية . وبهذا نشأت أولى مظاهر الاستقرار التي نرتبت عليها حالة التقسيم التلقائي للأرض تقوم عليها أنواع الزراعات البدائية التي يحتاجون لها

وتستغل في تربية ماشيتهم وبهذا ظهر شبه انتظام لاقتصاد بدائي وأخذ عدد السكان في الازدياد .

وكانت تلك الأرض تعتبر مأكلا عاما لأفراد القبيلة على السواء لانتخص بها فرد أو أفراد وإنما ماعليها من ثمار وحيوانات هو من أجل بقاء الجميع على السواء .

وكان العمل في هذه المجتمعات يقوم على مبدأ التعاون البسيط المستجيب لمتطلبات تلك الجماعات وسارت تلك الحياة البدائية على هذا المنوال حتى تطورت مظاهرها وتعقدت مطالبها وتطورت أدوات الانتاج وكل هذا أدى بدوره إلى تقسيم العمل وتحديد الاختصاصات في مجال الالتقاء الجماعي الواحد . فهناك فئة تختص بأعمال القنص والصيد وأخرى تخصصت في الأعمال الزراعية حتى اكتسبت بعض المهارات في هذا المجال بناء على المتابعة والملاحظات المتكررة وفئات أخرى قصرت نشاطها على تربية الموانى والحيوانات وهذا كله كان له عظيم الأثر في رفع مستوى الانتاج العام .

وبجانب تلك الحرف البدائية الأساسية من زراعة وصيد وتربية المواشى أدى اكتشاف المعادن إلى ظهور حرف أخرى اجتذبت عددا من الأفراد تخصصوا في هذا المجال واعتمدوا في معيشتهم على نتاج الفئات الأخرى في مقابل تبادل المواد الانتاجية .

وظلت تلك الحياة تسير على هذا المنوال حتى ظهرت حاجة تلك الجموع إلى من ينظم تلك الحياة ويوفق بين صراع الرغبات التي تؤدي غالباً إلى نشوء المنازعات والاضطرابات وهكذا انبثق للوجود ظاهرة السلطة المتمثلة في هيئة

فردية أو جماعية من أجل خلق الاستقرار والنظام في تلك الحياة .

ولو تتبعنا مراحل تلك السلطة المنظمة لوجدنا أنها قد ابتدأت منذ أن كانت الحياة بالنسبة للأفراد مجرد الانتقال من مكان لآخر سعياً وراء الرزق فلا شك أنه في تلك المرحلة كانت السلطة في يد من تتوفر فيه بعض الصفات التي تؤهله لقيادة تلك الجموع كالقوة والاستعداد البدني وسرعة الحركة وحساسية السمع وحسن تقدير الموقف مما يمكنه من التصدي للحيوانات الضخمة المفترسة التي كانت تشاركه في القرحال بحثاً عن الطعام أيضاً وبهذا تمكن الفرد من جذب الفئات ورائه وجعلها تشعر بحاجة ماسة لوجوده لقيادتها وتحقيق رغباتها ثم ما أن تداركت تلك الجموع حياة الاستقرار في مكان ما تنوافر فيه المصادر الغذائية وتلاءم ظروفه المعيشية معهم حتى تبدت المعايير اللازمة لإعتلاء رئيس للجماعة يتسلم زمام الأمور نحو قيادتها وأصبح أكبرهم سناً والذي تكون لديه من التجارب والخبرات في شئون الحياة ما يوفر عليهم مشقة التجربة بصعابها ويقدم لهم خلاصة فكره ومشورته . فكان هذا الرئيس يعيش مع القبيلة ينظم أمور أفرادها ويفضى منازعاتهم أثناء خروج أبنائها وتفرقهم كل في مجال عمله واختصاصه وهذا الرئيس ما عليه إلا تنظيم عمليات توزيع نتائج جهودهم فيما بينهم .

واستمرت تلك الحال من حيث اختصاصات السلطة المنظمة ، وأخذت مظاهر تلك الحياة تتطور ، والعقل البشري في نمو مضطرد وتسامت الأفكار وابتدأ البحث فيما وراء الطبيعة وابتدأت الأفكار المتباينة تسيطر على العقول العامة كعودة الروح بعد موت الجسد والحياة الثانية وما استتبعنا من أعمال السحر والشعوذة وتنميق الكلمات الغامضة التي كانت تسيطر على عقول العامة السذج وتستأثر بقلوبهم ووجداناتهم وتسخرهم وفق إرادة هؤلاء الزعماء الروحانيين .

ومن هنا تباينت المعايير التي على أساسها يتم انتخاب رئيس الجماعة تبعاً للمستوى الفكري والحضاري للأفراد ولكن الأمر الثابت أن هذا الرئيس كانت عليه مسئولية إدارة أعمال الجماعة وله الكلمة الأولى والأخيرة في حق الانتخاب بالمخرج وتبادل فائض الحاصلات والمنتجات وقطعان الماشية في مقابل الأشياء التي لا يتوافر وجودها في نطاق معيشتهم وامكانياتهم .

ونتيجة لتطور مظاهر الحياة وأدوات الإنتاج وتقدم الفكر البشري أدى هذا إلى اتساع المبادلات التي كانت تخضع لهؤلاء الرؤساء فازدادت تبعاً لهذا مكانتهم وسيطرتهم واعتبروا أن لهم حق قيادة الجماعة وبذلك أخذت ثرواتهم ومصادرها تتركز في أيديهم وتخضع لسلطانهم وتعتبر أرثاً يتداول في نطاق أسرة الرئيس جيلاً بعد جيل .

ولقد أدى استقرار الجماعات الأولى في منطقة معينة وتركيز نشاطها في حدودها إلى انبثاق وظهور فئة أخرى تنساز رؤساء الجماعات في سلطانها ألا وهي فئة القادة العسكريين فلا شك أنه من الأمور التي تتبع ازدياد السكان وتضخمهم وقلة الموارد الطبيعية التي تكفي حاجتهم وتطلع هؤلاء الأفراد للمناطق التي يحيط بهم وتتوافر فيها الموارد الطبيعية والامكانيات المادية بكونهم في حاجة إليها لاستكمال مظاهر وجودهم مما أدى إلى ابتداء مراحل الحروب والغزوات وهذا مما دعم مراكز قادة الجيش العسكريين الذين يحرزون نصراً بعد آخر مما جعلهم في مكانة تنافس رؤساء الجماعات في الاستئثار بمقدرات الأفراد وكذلك في مدى ولاء الشعوب لهم والخضوع لأوامرهم .

وهكذا بدأ ظهور الاستعباد والاستغلال حتى شمل كافة المظاهر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فكلما زادت معدلات نتاج المواد الانتاجية

وزيادة الرقعة الزراعية كلما زاد معدل الاحتياجات في الأيدي العاملة ومن تبدل مفهوم الحروب فأصبحت تستهدف من بين مفاهيمها الاستيلاء على الأيدي العاملة وأسرى الحرب الذين يستخرون في أعمال الزراعة واتسعت النجوة بين طبقة الملاك والطبقة العاملة والعبيد وتنكر الرؤساء واتباعهم للفئات العاملة إلى كانت في يوم ما يتساوى معهم في امتلاك تلك الأراضي ومصادر الثروات وتدرجياً بدأت علاقات الانتاج تتبدل من علاقات متساوية لها حقوقها وواجباتها وفقدت الحاجة المجموعة إلى مجرد علاقات بين سيد وخدام ، مالك ومأجور . وأصبح كل مستغل خلال هذا التحليل الاجتماعي والتحول من الملكية المشاعة إلى الملكيات الخاصة يفسر المفاهيم والعبارات لخلق قدسية لهذه الملكيات ابتدعها من أجل التأثير على خيال تلك الشعوب وجعلها في سكون واستسلام ورضوخ وفقاً لأرادته ولنا أن نستعيد معا بعض القوانين واللوائح التي كان على منوالها تنظم العلاقات بين الاسياد والعبيد .

فقد نص القانون الروماني المعروف بقانون الألواح الاثني عشر (*) على أن من يقطع أو يحمص خفية بالليل حاصلات يستعمل المحراث في زراعتها يعاقب إن كان بالغا بالاعدام أما إذا لم يكن بالغا فيحكم عليه بأن يضرب بعصا عددا من الضربات يقضى بها القاضى . كما يحكم عليه بضعف ما يصلح الضرر وإن كان السارق عبدا فيجلده المهنى عليه ثم يعدهم بقذفه من أعلى الجبل .

وفي قانون « بورجوند » كان يحكم على الزوجة والابناء ممن يزيد عمرهم عن اربعة عشر عاما بالعبودية إن لم يبلغوا فورا عن الزوج أو الأب المتهم بسرقة « خيل أو بقر » .

(*) تطوير الملكية الفردية بقر الاسعاذ احمد محمد غنيم .

أما قانون حمورابي الذي يرجع الى القرن الثامن عشر قبل تاريخنا فإنه يحمي الملكية وحقوق الأغنياء والنبلاء وملوك العبيد والأراضي . فكانت نسبة على الفلاح الذي لم يدفع دينه الى دائته أو الذي لم يدفع إيجار أرضه . فاستلمت العقارى أن يقدم زوجته أو ابنه أو ابنته للدائن أو المالك كسميد تابعين له حتى يقوم بسداد ما عليه من دين .

وقانون « مانوفى الهند القديمة » وهو مجموعة من الأوامر الاجتماعية والدينية التى تقدر الملكية فكان يعاقب بالاعدام كل من يخفى فى منزله عبدا هاربا .

من خلال تلك القوانين يمكننا الوقوف على أبعاد الهوية السخيفة التى كانت تفصل بين طبقة الملاك والفلاحين والعبيد وآثار الذى والسخرية التى كانت تلحق هؤلاء الضعفاء المسخرين فكانت الأسس الإنتاجية تقوم على علاقة شاذة لا تمت بصفة إلى الإنسانية أو القيم الأخلاقية العليا وإنما كانت هناك ملكية السيدولوسائل الإنتاج والنفوس البشرية التى تعمل بها ولا تقتصر تلك العلاقة على مجرد استغلال الانسان لأخيه الانسان وإنما تعطيه الحق فى شرائه أو بيعه كسلعة مادية تخول له حق التصرف به حقا مطلقا مستبدا .

ولا شك أن كل نظام يقوم على المتناقضات والأوضاع الشاذة يحمل فى أعماقه أيضا بوادر فئائه والشرارة التى تؤدى الى اشتعال أركانه واندثار مظاهره وانقراض وجوده .

وهذا هو الحال فى النظام العبودى . أوضاع شاذة لا تمت إلى الإنسانية بصلة أو قرابة تستنكر فى وجودها متطلبات البشرية وحقوقها الطبيعية فابتدأ

النظام الإقتصادي الزراعى والتجارى الذى كان يستند على تدفق أفواج العبيد
تعرض طريقه عشرات تمثيل فى الانتفاضات الثورية ومطالبة هؤلاء البشر
بمقوقهم فى الحياة والقضاء على ملك العبيد مما دعا بعض الملاك فى اطلاق سراح
هؤلاء العبيد وأعطوهم بعض الحقوق فى امتلاك قطع صغيرة من الأرض
يستثمرون نتائجها بمجهودهم ووفقا لإرادتهم ولكن لم يترك السادة العناق لهم
ولم يمنحوهم الحرية المطلقة وإنما كبلوهم بقيود أخرى والتزامات باهظة
بموجبها يقدم هؤلاء الفلاحين مبلغا من المال أو جزء من المحصول وانمائهم
بالولاء والطاعة لصاحب الأرض والمالك الأصلي .

نظام الاقطاع

كان على أثر قيام السيد صاحب السلطة بتوزيع بعض الاراضى الشاسعة على بعض أتباعه ، يمتلكون بموجب تلك الهبة الارض بما عليها فى مقابل التزامهم بالولاء نحو هذا السيد ويدينون له بالتبعية والولاء العسكرى وامسداه بالعون المالى والتأييد متى احتاج اليه ، أن تدفق اليه بالتالى من تلك الاقطاعيات ضرائب بصفة مستمرة ترسل له على فترات دورية وبصفة استثنائية اذا ما احتاج لعون مالى .

وبالتبعين فى تلك الالتزامات التى تقدم من مالك الاقطاعية الى السيد نجد أنها فى المضمون تقع أولا وأخيرا على هؤلاء الفلاحين وتمتص من جهودهم ودقاتهم ودمائهم وفى مقابل حرمانهم من مصادر الحياة .

وكان أصحاب الاقطاعيات يوفرون تلك الالتزامات عن طريق استيلائهم على بعض المحصولات وفرض الضرائب ثم يقومون بدور الوسيط فى هذا وذلك بنقل تلك الاموال والمحصولات الى السيد بعد أن يستقطعوا جزءا منها يصبح حقا لهم .

كيفية نشأة البرجوازية

عندما نتعرض لبحث نشأة البرجوازية كمرحلة انتقالية من الاقطاع الى الرأسمالية في أوروبا إنما ندرس الأسس التي ارتكزت عليها في مراحل انطلاقها وأثرها في النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ومدى تأثيرها على الفكر خلال تلك المرحلة .

كانت أوروبا خلال العصور الوسطى منقسمة في كيانها الطبقي الى ثلاث طبقات . طبقة النبلاء والاقطاعيين وطبقة رجال الدين والطبقة العاملة .

وكانت حينئذ الحياة السياسية هي ميدان خاص لا يخوضه إلا النبلاء ورجال الدين نظرا لارتباطهم بالملكية التي تؤيدهم وتمدهم بعوامل القوة والسيطرة بينما الطبقة الثالثة وهي الطبقة العاملة التي لا تملك من الثروات والقدرات إلا طاقتها على العمل والكدح في سبيل الحياة وهؤلاء بعضهم يقطن القرى ويرتبط مهنيهم بملك الأراضى الإقطاعيين التابعين لهم تبعية تنفدهم ككيانهم الأنسانى وأداميتهم البشرية — أما الباقي منهم الذين مكنتهم ظروف خاصة من التحرر من تلك القيود الرهيبة وانطلقهم الى خارج تلك المقاطعات المنعزلة واقامتهم في مدن صغيرة تقع عند ملتقى مقاطعات متخذة الحرف والصناعات الحرفية معاشا لهم يقتاتون منه أو يقومون بنقل التجارة من مكان لآخر وكانت

مهنة التجارة في العصور الوسطى تعتبر من المهن المنافية للشرف والنبالة وقيم الكنيسة الكاثوليكية وكانت تلك المفاهيم والمعتقدات تسود تفكير المجتمع الاوربي في ذلك الحين وهي موروثه من الرومان الذين كانوا يعتقدون بأن التجارة مهنة خسيسة لا يزاوها القوم الشرفاء بصفتهم مباشرة وانما تدار عن طريق الأرقاء والأتباع تؤول مكاسبها وأرباحها لهم من بعد .

وظلت تلك الأفكار الرومانية راسية في الأذهان طول تلك الفترات وتسيطر على العقول والسلوك خلال المجتمعات الاوربية ولقد كانت اوربا منطوية على نفسها في ظل تلك الأوضاع الشاذة وهذا المجتمع المتنافر ، كل اقطاعية منها ترتبط فئاتها العاملة بالسيد صاحب الأرض يتحكم في مصيرها ويقود حياة أفرادها مقابل أن يقدم لهم الطعام والكساء ويستبد بالإدارة والحكم فيما بينهم .

وكانت كل اقطاعية يسود فيها نظام اقتصادي مغلق وذلك بتوافر كافة احتياجاتها الأساسية وذلك عن طريق بعض الحرفيين داخل المقاطعة يقومون بممارسة الحرف التي تقوم على مواد أولية وخامات متوفرة في نطاق المقاطعة كاللابلش والأحذية وأدوات الصيد .

وبمرور الوقت أخذت تلك الحرف البدائية تتطور وتقدم وزاد احتياج وطلبات السادة الإقطاعيين لها مما أدى الى انتقال بعض الحرفيين من مجرد اتخاذها عمل بجانب عملهم الأساسي في الزراعة وتخصيصوا للقيام بها وكانت تلك الحرف هي المخرج الوحيد من جدران عزلة الإقطاعيين وتعسف سادتهم النبلاء .

وابتدأت الحرف تمارس في صورة فردية ثم أخذت تتطور حتى تلاقت الفئات الحرفية في مجموعات متخصصة كل في مجاله ، ثم استتبّع ذلك ظهور الأسواق التي يتم فيها عرض المنتجات الصناعية وبالتالي زاد الاقبال عليها مما أدى الى تقدمها وتكامل صناعتها وازدهرت مجالات متسعة لعرض منتجات الصناعات والحرفيين حتى تحولت كثير من القرى الصغيرة الى مدن يسكنها فئات متباينة من الحرفيين ونشأت الأسواق الدائمة التي يتم فيها التبادلات والمقايضات .

وأخذت تلك الفئات ترتقي سلم الطبقات المادية واتخذت مكانا مرموقا من الاقتصاد وأثروا ثراء كبيرا حتى بدأت طبقة الأشراف والنبلاء ورجال الدين في مهاجمتهم وضربهم بسموم الحقد والكراهية محاولين تحقير شأنهم واذلالهم من الناحية المعنوية واعتبروا أن تلك الطبقة لا تستحق مظاهر الآدمية وكانوا يطلقون عليهم *Porjowa* البؤساء أو المتطفلين باعتبار أن عمسّل التجارة عمل خسيس ودنيء .

وبالرغم من تلك الأقاويل والادعاءات انطلقت الطبقة البرجوازية من خلال تعسف النظم الاقطاعية وعلى أثر اذلال السادة للفئات الشعبية والتحكم في مقدراتهم وكيانهم العام والخاص وانفجرت تلك الفئة تحمل في عقولهم أفكارا جديدة متطورة وتكن في قلوبهم تطلعات الى آفاق ظلوا سنين طويلة تراودهم أحلام وأمانى يستهدفون تحقيقها وتحويلها من مجرد أفكار وخيالات الى حقيقة محسوسة ذات واقع حيوى بالنسبة لهم ترتقي بوجودهم من الحرمان والكبت والآلام الى آفاق التحرر والشعور بالذاتية الانسانية .

وكان مجرى الأحداث التاريخية العالمية يعتبر مجالا خصبا لهم ونسأهم في ارساء أقدامهم وتدعيم كياناتهم فكانت الحروب الصليبية (١٠٩٦ — ١٠٩٩)

قد فتحت لهم أبوابا شاسعة لتبادل التجارة من الغرب والشرق ونقل التوابل والعاج والأحجار الثمينة من الشرق الى الغرب ثم تنقل من الغرب الى الشرق المنسوجات والصناعات المتعددة ، مما أدى الى تطور مظاهر الحياة ودب النشاط في المدن وأصبحت ملتقى لفئات متباينة وأخذت المظاهر الاقتصادية في التطور وتسير وفقا لأهواء تلك الفئات التجارية حتى أصبحت ذات مكانة وكلمة في المجتمعات الاوربية .

ومما ساهم في ارساء وتدعيم جذور هذا النجاح والتطور واعلاء شأن تلك الفئة هذه الثورات المتعاقبة التي كانت تنطلق شرارتها من الفلاحين ضد ظلم الطغیان الاقطاعي وضد تلك الإدعاءات التي كان يرفعها الإقطاعيون عليهم لحرمانهم من حق استغلال مصادر الثروات الطبيعية ومنها ثورة جماعات الجاكيرى *Jacqueries* في مقاطعات شمال ووسط فرنسا التي كافحت ضد ادعاءات الإقطاعيين الذين منعوا الفلاحين من استغلال الغابات ومجاري المياه (*)

وكذلك ثورة الفلاحين في انجلترا في نهاية القرن الرابع عشر التي امتدت الى اجزاء كبيرة منها وانتشر الفلاحون المساحون وعلى رأسهم « وات تايلر » وهددوا منازل الإقطاعيين ولكن تم القضاء على هذه الثورة بأساليب الخداع والعنف وقتل « تايلر » غدرا بعد أن القى الإقطاعيون في روع الفلاحين أنهم سيعملون على تحقيق أهدافهم حتى تخدرت تلك الجماهير وعادوا الى منازلهم وقامت هناك حملات تأديبية عصفت بالقرى في قسوة ووحشية .

(*) تطوير المدونة بقلم احمد محمد غنيم

كما كان هناك ثورات أخرى في ألمانيا منها ثورة السلاحين في « سواب Souabe » في عصر لوثر وكذلك حروب الفلاحين في روسيا بقيادة « ستيفان زورين » في القرن السابع عشر و « أميليان بوجا تشيف » في القرن الثامن عشر والتي طالب فيها الثوار بإعادة تسليم أراضي الإقطاعيين والدولة إلى الفلاحين وانتهاء السيطرة الإقطاعية .

ومما لا شك فيه أن تلك الانتفاضات الثورية المعبرة عن آماني ورغبات الفلاحين والفئات الكادحة ومحاولتهم المستمرة للحصول على حق الحياة قد عادت على البرجوازية فيما بعد بآثار ساعدت على نشوئها وارتقاءها واحلال الاستغلال الرأسمالي محل الاستغلال الإقطاعي .

ولا يتسع مجال بحثنا هذا للاسترسال في مناهج البرجوازية المتعددة المتعاقبة التي أدت في النهاية إلى سيطرتهم على مظاهر الحياة وإنما سنكتفي بالمرور على نتائج صراهم . فكان انطلاق البرجوازية إلى ميدان الانتاج مستندا على عامل رفع معدلات الأرباح بجانب الحفاظ على مصالحهم وسلوكوا في هذا منهجا لا يقل استغلالا عن المنهج الإقطاعي في استغلال الفئات البشرية .

وبعد أن نمت وتراكت رؤوس أموالهم وتضخمتم خزنهم تنصكروا لتاريخ صراهم وتناسوا مطالب الفرد الانسانية واتبعوا أساليب المكر والدهاء نحو ادارة مشاريعهم واستثمار أموالهم ضارين بكل المبادئ الانسانية والحقوق الفردية التي كانوا في يوم من الأيام عبدا لسرايها حالمين بوجودها .

ثم جاء الاصطدام الحتمي بين الفئات الشعبية وبينها عندما ظهرت الفجوات العميقة بينهما وتبلورت معالم السيطرة والاستغلال للمرافق الأساسية والوظائف

الحساسية من وراء قوة المال وشراء القانون .

واندفعت الجماهير تشد من أزرها طبقة النبلاء ورجال الدين الذين اتجهوا الى قوة الجماهير بعد أن زالت مكانتهم وسيطرتهم أمام النفوذ الرأسمالي السريع التطور وانفق هذا المحور المكون من الشعت والنبلاء ورجال الدين ضد المناخية التي وجدت من البرجوازية خير معين لها أكثر فاعلية من النبلاء ورجال الدين من حيث تدعيم ملكهم واستمراره ، وحاجتهم الى الأموال لتكوين اجهزتهم الادارية والدعاية وهذا العنصر المادي اصبح متوفرا عند القوة الاقتصادية الجديدة التي تتركز مصادرها في أيدي البرجوازية التجارية والصناعية الجديدة .

ومن زاوية أخرى نجد أن البرجوازية قد باركت هذا التحالف وانطلقت نحو الملكية تساندها وتجييب لها ما تطلب نظرا لما تداركته انها في حاجة الى مزيد من الأمن والاستقرار المبدى ، وعلى هذا الأساس انطلقت لامداد الملوك بما يحتاجون اليه من مال وسلاح لمحاربة طبقات النبلاء والأشراف ورجال الدين الذين يمثلون بقايا عصر الاقطاع وصوره لتاريخ لا يشرفهم ووسيلة لاطفاء نيران تتأرجح في صدورهم ورواسب تترك في نفوسهم عقدا مترسبة .

كما أن هذا الاتفاق والتحالف كان في حد ذاته قوة تحد من مطالب الفئات الشعبية التي أصبحت عقبة أمام المزيد من الاستثمارات المالية على أثر النهضة الفكرية وظهور الفلسفات الجديدة المعطورة .

فلسفة الفكر السياسي البرجوازي

من الواضح أنه في خلال كل نظام معين تكون هناك بعض المعتقدات والأفكار التي تسيطر على عقول الفئات الخاضعة له تتحكم في نزعاتهم وتعطى لسلوكهم طابعا خاصا وتنظم لهم مناهج خاصة تقوم عليها علاقاتهم العامة والخاصة سواء في نطاق مجتمعهم أو خارجه .

وعندما تسيطر فئة خاصة على تقاليد السلطة في مجتمع ما سواء أكانت تمثل سادة العبيد أو الاقطاعيين أو البرجوازيين فانها تعتمد الى ارساء أفكار معينة وقيم خاصة تؤول في النهاية إلى خدمة مصالحهم الشخصية وتزبد من سطوتهم وتمكنهم من الاستمرار في تسييرهم والسطو على جهوداتهم وثرواتهم.

فعلى سبيل المثال نجد أن المجتمع البرجوازي يعبر عن الحرية بمضمون خاص هو في حد ذاته تعبير عن حرية الاستغلال والتحكم في وسائل الانتاج والتوزيع وما يتبع ذلك من سيطرة على مقاليد الحكم حتى يصبح المضمون الحقيقي للحرية بمعانيها السامية الخالدة مسلوقة زائفة وأن بدت لها بعض الملامح والظواهر المحدودة فلا تكون إلا كخدر للعقول والوجدانات، طالما أن ارادة الفرد لا أثر لها نظرا لوجوده خلال أوضاع شاذة متمثلة في واقع مادي لتحكم واستغلال صاحب المال لوسائل الانتاج المادية والبشرية .

وتصبح حرية البرجوازية هي حرية الجشع واستغلال كدح العمال وعرقهم مما يجعلهم يعيشون تحت مزية الحرمان وآلام البؤس والانعزال .

وهذا ما كان خلال مرحلة التحول من نظم الافطاع الى الرأسمالية في أوروبا ، فقد اتجهت فيها التحليلات السياسية الى المنهج الميكانيكى الذى يبرز الوسيلة من أجل غايتها مهما كانت تلك الغايات والوسائل منافية للقواعد الأخلاقية والقيم الانسانية السامية .

ومن ثم أصبح التفكير السياسى يحمل فى أعماقه طابع المراوغة والمكر وتنكرت السياسة فى مضمونها العميق نحو التوفيق بين المصالح المتضاربة وتنظيم العلاقات بين الأفراد فى نطاق المجتمع الواحد وسادت سياسة المصالح والفرقة وسياسة الاستغلال والاحتكار .

ولم ينته الفكر البرجوازى عند تلك الحدود وإنما امتد إلى تبرير مذهب الحق الالهى الذى يهدف إلى أن صاحب السيادة يستمد سلطته من الله مباشرة فلا يسأل الا أمامه وان مجرد مقاومة الشعبية وتنكرها لتلك السلطة هى جريمة لا تغتفر وتمرد لتعاليم السماء والمشيئة الالهية :

وكان المفكرون والفلاسفة خلال تلك المراحل يقدمون آراء متباينة منهم ما يبرر تلك الأوضاع وآخرون يقدمون ما يثبت بطلانها وينكرون لها . ولقد ظهرت كتابات متباينة دارت معظمها حول ما سمي بالعقد السياسى وما يترتب عليه من حقوق وواجبات متبادلة ما بين السلطة والجمهور ووضع منهج معين لكل من الطرفين اذا ما أخل احدهما عن قواعده حق للطرف الآخر أن يتصدى له ويتمرد عليه .

ومن هذه الفلسفات سوف نتعرض لثلاثة منها تبلور من خلالها الججج للفعالية التى تقوم عليها سيادة الشعب وتمكنه من المطالبة بحقوقه المشروعة وفقا لهذه العقود الافتراضية والتى تبلورت فى فلسفات كل من توماس هوبز وجون لوك ، وجان جاك روسو .

فلسفة توماس هوبز

استند هوبز في فلسفته نحو افتراض عقد اجتماعي يرم بين السلطة والشعب ويخرج بها الأفراد من حالة الطبيعة الى حالة الاستقرار .

وصف هوبز لحالة الطبيعة

كانت نظرة هوبز لحالة الطبيعة الاولى نظرة متشائمة فجاء تصويره لها في حالة يستند فيها الفرد نحو قضاء حاجته والاحتفاظ بممتلكاته الى عامل القوة والمصلحة الشخصية ويهتدى في سلوكه وفقا لما تمليه عليه نزواته وغرائزه وشهواته ويحتفظ بحقوقه وممتلكاته بالقدر الذي يتوفر لديه من القوة ما تمكنه من الحفاظ عليها .

وقد اتجه هوبز في تفكيره على أن ما دفع الناس للتلاق وتكوين هيئات اجتماعية واختيار سلطة عليا تنظم أمورهم وتحد من طغيان الأفراد فيما بينهم ، هو من اجل الحد من حالة الحرب التي تكون قائمة بين الجميع على السواء .

تفسير العقد الاجتماعي لهوبز

اشترط هوبز في تفسير هذا العقد بتنازل الجميع عن ما لهم من حقوق مطلقة وسلطات لا حدود لها في مقابل خلق الأمن والاستقرار وتمكينهم من الحفاظ على ممتلكاتهم ومعتقداتهم وذلك بأن تعاقدهؤلاء الأفراد فيما بينهم لتحويل تلك السلطة المطلقة لفرد أو فئة معينة يختارها الأفراد بحيث لا يكون هناك أي التزام من تلك السلطة قبل الأفراد تدين به أو تسأل عليه وإنما وجودها من أجل التوفيق بين الارادات الفردية المتباينة . وهذا العقد هو عقد نهائي لا رجعة فيه وتنتهى مسؤولية الجماهير حينما تستقر تلك السلطة .

نهاية هذا العقد

لم يترك هوبز تلك الصورة التي يتخيل فيها هذا العقد في حالتها المطلقة وإلا ما كانت تقل في وجودها عن حكم ليفيathan (*) وإنما ترك هناك مظاهر

(*) لينيان / شخصية اسطورية نزلها الرومان عن الاساطير العبرانية القديمة وتمثل الشخصية في العادة و صورة وحش بحري كبير أو غول مربع يعيش في البحر متعكما في أمره، ومحتندا في حكمه على الطغيان .

معينة اذا حرمت منها الجماهير حق عليها التمرد والخروج من العقد الاجتماعي —
 فينضوع الأفراد للحكام والولاء له يتوقف على مدى سلوك السلطة نحو توفير
 مظاهر الأمن والحماية والحفاظ على وجودهم الانساني . فاذا ما فشل الحاكم في
 تلك المظاهر للشعب حق لهم الارتداد لحالته الطبيعية واختيار سلطة اخرى
 لديها الامكانيات لتحقيق وجودهم ومن ثم فهوبز استهدف السلطة في منطقة
 لا لشيء إلا للقضاء على حالة الفوضى حتى ولو كان هذا على حساب الحرية
 الفردية .

* * *

فلسفة جون لوك

تضمنت فلسفة لوك اولي مظاهر السيادة الشعبية وتعبيرا صادقا لها فجاءت تلك
 الفلسفة في كتاب الحكومة المدنية سنة ١٦٩٠ في أعقاب ثورة سنة ١٦٨٨ الانجليزية التي
 قام بها حزب الهويج *Whigs* ضد حكم آل ستيوارت التي استندت في حكمها الى
 مبدأ السلطة المطلقة والحق الالهي واعتبرت سلطة الحاكم مستندة من الارادة
 الالهية ومن يتمرد عليها فقد خرج عن الارادة السماوية .

وعليه فجاءت أفكار لوك تخدم رسالة هذا الحزب وتعطي الشرعية لأعمالهم
 في خلع ملوك آل ستيوارت . وقد اتبع لوك في منهجه نفس منطق هوبز عن
 فكرة العقد السياسي ولكنه وضع السلطة في حالة مقيدة .

وصف لوك لحالة الطبيعة

اتجه لوك لوصف حالة الطبيعة وصفا يستند على أساس عقلي من حيث أن رغبات الانسان هي الدافع الأول والأخير لسلوكه ولكن في نفس الوقت تتوفر لدى هذا الانسان من القدرات ما تمكنه من الوقوف أمام تلك الرغبات والتحكم فيها ومنعها من السيطرة على سلوكه خلال البيئة الحاوية له .

وكذلك اتجه لوك بأن الجهود الانسانية تستهدف في وجودها احلال السعادة والرفاهية وتطوير الامكانيات الانسانية نحو الكمال .

والطبيعة في مفهومه هي حالة من المساواة والحرية الكاملة يخضعان لطبيعة العقل البشرى نحو اتجاهاه الغريزي الى العمل الفاضل والسلوك الانساني نحو حماية الضعيف من اعتداء خارجي والحفاظ على حقوقه خلال الهيئة الاجتماعية وهو ما يسمى بحق المعاقبة الطبيعي وفي هذه الحالة يكون الالتزام الفردي وفقا للقواعد الأخلاقية وانضمير الانساني والقانون هنا هو قانون العقل .

ومن ثم فالأفراد في مثل تلك الحالة لهم مطلق الحرية في أن يسلكوا أي منهج يترأى لهم ويعود بالخير عليهم بشرط الالتزام بقانون الطبيعة الاخلاقي والأخذ بمبدأ المساواة التبادلية وعدم الاعتداء على حقوق الآخرين وكل فرد له الحق في أن يملك من الثروات الطبيعية والامكانيات ما يوفر له حاجته الأساسية ومتطلبات معيشته ويرتكز هذا على مجهود الإنسان وقدرته على الاستهلاك .

وفي خلال تلك الحالة الطبيعية يكون من حق الانسان الفرد أن يحافظ على ممتلكاته ويرد العدوان بالمثل .

تفسير لوك للعقد الاجتماعى سنة ١٦٣٢ — ١٧٠٤

مما سبق نستدل على بعض المظاهر التى وضعها لوك لوصف حالة الطبيعة
والتي يصبح فيها لكل فرد الحق فى الحرية والحق فى الملكية والحق فى العمل
كما وأن له واجبات والتزامات نحو جماعته فى أن يحسن استغلال ما وهبه الله
ويحافظ على حياة الآخرين ويحترم آراءهم ومشاعرهم فتلك الواجبات فى
مضمونها ما هى إلا التزامات أخلاقية إنسانية ليس لها معايير أو مقاييس أو
سلطة تجبر على إنتاجها إلا العقل الإنسانى . ولكن هل تسير تلك الحياة الطبيعية
على هذا المنوال المثالى وهل نتذكر لآثار الغرائز البشرية الشاذة والمنحرفة ؟ من
هنا اتجه لوك لتفسير غاية العقد السياسى بعد أن تدارك بأنه لى تستقر الأمور
ويستتب الأمن يجب أن تملأ الفجوات التى تتخلل هيكل الحالة الطبيعية
من حيث :

١) عدم وجود القوانين التى تعبر فى مضمونها عن حقيقة الرغبات
الجماعية بتباين مستوياتها .

٢) عدم وجود معايير لها .

٣) عدم وجود السلطة القادرة على متابعة السلوك الإنسانى وإجبار
المنحرفين بالالتزام لتلك القوانين المتفق عليها .

وتبعاً لهذا اتجهت الفئات للتلاقى لمخاطبة المجتمع الذى تسوده تلك المفاهيم ،
مجتمع قادر على حماية الحريات فى ظل المساواة الطبيعية ويخلق حياة يسودها
الأمن المتبادل والحماية المكفولة للجميع والهدوء الشامل .

وهذا الانتقال قد تم وفقا للارادة الجماعية التي هي أصل لكل حكومة شرعية ثم انفتحت تلك الفئات فيما بينها على عقد اجتماعي هم طرف من أطرافه ، والطرف الآخر هو السلطة الحاكمة المختارة وعن طريق هذا العقد تتمكن تلك الجماعة من إقامة حكومة ذات سلطة موكلة لها الحق في وضع القوانين وفرض الجزاءات وحماية أمن الدولة واستقرارها مستمدة قوتها ووجودها من السلطة الشعبية ، وعليه فالفئات البشرية الحق في متابعتها ومباشرة سلوكها واسقاطها متى ضلت غايتها وانحرفت في سلوكها عن المضمون الذي احتواه العقد وتم الاتفاق عليه وحق للشعب مقاومتها حينئذ لأنها تصبح في تلك الحالة سلطة غير شرعية من حيث وجودها واستمرارها .

وهكذا كان لفلسفة لوك أعظم الأثر في تطوير الفكر الانساني من حيث علاقة الفرد بالسلطة وأن لا شرعية لتلك السلطة إلا بقدر تحقيق مطلب الجماهير الانسانية وقد وجه النقد لفلسفة لوك من حيث تصورها في التعبير عن حقيقة متطلبات الفئات الجماهيرية بتباين مستوياتها من حيث جعل الغنى يزداد في ثرائه والفقير يظل على فقره وفقا لما افترضه لوك من حيث حماية ممتلكات الفرد وعدم التعرض لها حفاظا على حقوقه الطبيعية المشروعة ، ولكن لا نستطيع أن ننكر أثر فلسفة لوك في منح آفاق متسعة لظهور فلسفات تعبر عن حقيقة الفكر البشري ومتطلباته الأساسية .

فلسفة جان جاك روسو

تتضمن فلسفة روسو التي تبلورت في كتابه « العقد الاجتماعي » بأنه ليس هناك أعمق معنى ولا أسمى غاية تعلو التضامن الاجتماعي وقد أصاغها في الميثاق الجماعي فقال « يضع كل واحد منا نفسه وما أوتي من قوة مشتركة تحت الإدارة العليا للارادة العامة ، ونلتقي بهيئتنا كل عضو كجزء من كل لا يتجزأ » .

هكذا جاء تقديس روسو للارادة العامة التي هي في مضمونها تعبيراً شاملاً عن متطلبات الجماهير في كافة المجالات وقد عبر روسو على أنه ليس هناك صاحب سلطة مطلقة مستبد ولا صاحب سيادة إلا الجماهير على السواء هذه هي الفكرة التي تسلطت على روسو وانبثقت على أثرها فلسفته في العقد الاجتماعي .

وقد أشار روسو على أن هذا الالتقاء الجماعي يتمثل في صورة « الكل » الذي يتكون من الأفراد كجزء من كل متكامل له ارادة مشتركة ومطالب واحدة ، فإذا ما كان هناك ، استبداد من الكل فبالنألى ما تستبد هي الارادة العليا المشتركة ، وهكذا لن يكون هناك استبداد لأنه في الواقع عندما يتنازل كل فرد بحقوقه للكل فانما بطريقة غير مباشرة يحافظ عليها لنفسه وذلك لأنه يضع حرته بين أيدي الجماعة التي نشأت عن طريق الارادة الفردية المشتركة وبالتالي فلزام على الفرد أن يقر لها السيادة في صورة ولائه للقانون العام المشترك الذي تعلو فيه الارادة العامة كل شئ دون تمييز أو اعلاء فرد على آخر فالمواطن جميعاً على قدم المساواة وأى قانون لم تقره الجماهير يصبح باطلاً لا أثر له أو كيان .

كما أن روسو قد توصل بتفكيره الى الآثار التي قد تترتب على تركيز الثروات في أيدي فئة معينة تستأثر بها وبالتالي تتحكم في مقدرات الفئات المحرومة الفقيرة وعلى هذا الأساس فعلى الدولة اذا ما انجهدت الى اقرار المساواة بين الفئات الشعبية فعليها ألا تقصر منتهجها على مجرد الحفاظ على الحريات وممتلكات الأفراد بالأوضاع التي عليها وإنما يجب أن تبدأ من قاعدة واحدة متساوية وتزيل مظاهر عدم المساواة والتفاوت الساحق في الممتلكات والحييزات الواقعية.

وعليه فعلى الأفراد جميعاً على السواء التخلي بممتلكاتهم الى الجماعة بغية الحصول على الحرية المدنية والاقتصار بملكية كل ما تقدمه الجماعة له بحيث يكون هذا الالتزام نحو جميع الأفراد على السواء والصالح النام غاية عليا تسمو على السلوك الانساني عامة وهكذا يقوم العدل والمساواة على أسس فاضلة أخلاقية.

ومما لا شك فيه أنه كان لروسو آثار عميقة في اتجاهات الرأي العالمي وخاصة في الحركات التحررية في أمريكا وفي انبثاق الثورة الفرنسية واعلان وثائق حقوق الإنسان وسادت العبارات التي تؤكد سيادة الشعب وحق متابعته لسلوك الحكومات يبدل اعضاءها وفق ارادته متى انتضحت انحرافاتهم وصارت عباراته لها قدسية خاصة في التعبيرات عن الحرية يستشهد بها في كثير من المواقف السياسية .

* * *

هكذا كانت مظاهر الفكر خلال التطور البرجوازي ، انفعالات واحساسات تجول بالعقول والصدور وعدم الرضا عن الأوضاع الاستبدادية المطلقة ومظاهر الاستغلال البشعة . وأخذت تلك الأحاسيس والأفكار في التطور وتفتحت العقول وامتدت تطلعات البشرية الى أبعاد أكثر عدلا ورفاهية. وفي نفس الوقت أخذت مصادر الثراء بالنسبة لاصحابها في الازدياد والتعدد

والازدهار وارتفعت مستويات المعيشة على حساب الطبقات السكادحة الفقيرة وما لبثت البرجوازية خلال القرن السابع عشر أن حظيت بالنمو والازدهار بفضل ثرائها حتى اتجهت لتشجيع الحكم المركزي الناشئ كنظام للدول القومية الحديثة وتحولت في حكمها الى ييروقراطية مستبدة . ثم جاء القرن الثامن عشر بازدهار في حركات التصنيع لا سيما في إنجلترا وفرنسا مما شد أوصالها ودفعها إلى إزدياد سيطرتها على زمام الأمور السياسية حتى أصبح لكلمتها الوزن والتقدير في مجال الحياة السياسية والاجتماعية .

ومن هنا نتضح لنا حقيقة هي من خصائص الفئات الاستغلالية على مر العصور والأجيال فتلك الطبقة البرجوازية نجدها في فجر نشأتها تتقرب وتؤيد الحكم المطلق وتمسده بالعون نظرا لحاجتها لمزيد من القوة تمكنها من إرساء جذورها في المجتمع ، نجدها على غرة انقلبت على هذا النظام الذي أصبح لها عثرة في طريق نهجها للثروات واستغلال الفئات فتتجه للمكر والخديعة وتبحث عن نظام يعيـد لها الاستقرار الذي تزعزع ويحقق لها الحرية بما يتفق ويلائم تطورها وتطور التفكير الاجتماعي .

فبدأت البرجوازية في الترحيب بسقوط الحكم المطلق وتبلور موقفها هذا حيال ثورة إنجلترا سنة ١٦٨٨ وكما كان أيضا إزاء الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ فقد عمدت الطبقة البرجوازية إلى إرساء أفكار وقيم جديدة في نفوس الفئات الشعبية ودفعها بطرق دنيئة غير مباشرة وذلك باشعاع أفكار تحررية ملتوية تخدر بها الجماهير وإرساء الأفكار التي تستخدم بدورها مراكزها ومصالحها نحو تقديس حق الملكية الشعبية وحرمان السلطات من حقها في الاعتداء عليها وألا يكون هناك حينئذ حق في التنكر لها والثورة عليها وهذا ما كان بالفعل في الثورة الفرنسية ، فكر يسعى للحرية والمساواة والأخاء وحق الاشتراك في الحياة السياسية بينما كلها في الواقع مجرد فلسفات مخدرة ومناصب وهمية لا يتطرق لها

في الواقع جائع أو محروم فهي ثورة لقت بثورة شعبية قامت من أجل الفضاء على النبالة والاقطاع وارساء شعارات الحرية والمساواة والأخاء ولكنها في حقيقتها مجرد شعارات لا تمكن من السيطرة عليها الا الطبقة البرجوازية ولا تحمي بدورها الا مكاسبهم ووجودهم .

وهتمت الفئات الشعبية للحرية بناء على مناقشات دارت بين الفلاسفة البرجوازيين واتخذوا على أثرها واندفعوا الى الثورة التي أدت الى قيام النظام النيابي والمجالس المنتخبة والممثلين للأمة وسلم كل هذا الى الفئة البرجوازية التي امنت وجودها بالتكليف العلمى والقانونى بأن جعلت المنتخب يمثل الأمة كلها وليس الهيئة ، وبهذا يتحقق انقطاع الصلة نهائيا بين المنتخبين والناخبين طوال مدة عضويتهم وعليه فبدلا من أن تكون السلطة في يد الملك ومنعزل بها أصبحت في أيدي المنتخبين يسرونها وفقا لارادتهم ومطامعهم الشخصية ، وبهذا ضمنت الطبقة البرجوازية عدم وصول أى فرد الى مقاليد الحكم والانفراد بها دون رقابة أو منافسة عليها ، لأن المرشح الكادح لا يملك نقودا تمكنه من ترشيح نفسه وإنما سينقاد وراء من يلقي اليه حفنة أكبر من النقود .

وغدت البرجوازية ، بعد أن ارتفعت الى قمة المجتمع وسيطرت على مظاهر وجوده السياسية طبقة احتكارية انتهازية توجه النظم لصالحهم من أجل تنمية ثرواتها فكان من نتيجة اطلاق الحريات لأصحاب الأعمال أن أسفرت عن أبشع صور الاستغلال والاحتكار للطبقات العاملة .

وتبلورت آفات الرأسمالية وبرزت المنافسة الاستغلالية وعلى أثرها أصبحت الفئات العاملة تستغل أسوأ الاستغلال وتجمعت مصادر الثروات في أيدي قليلة وعاشت الفئات العريضة حياة تسودها ألوان متباينة من الحرمان والبؤس والظروف القاسية وآفات الجهل والفقر والمرض .

وهكذا نتضح لنا حقيقة راسخة بأنه سواء في خلال حياة العبودية أو
الاقطاعية أو الرأسمالية لم يكن هناك إلا تفاوت طبقي رهيب انعدم فيه تكافؤ
الفرص والمساواة سواء في توزيع الدخول أو الثروات الوطنية وانبثقت الى
الوجود معالم البطالة بأنواعها المتباينة وتبلورت معالم التحكم في المقدرات والنفوس
واندلعت بذور الصراع الطبقي ووقعت كل تلك الرواسب على كاهل الفئات
العامة الكادحة والطبقات الوسطى الصغيرة ، التي ولدت بالتالى ثغرات ضعف في
نفوسها من حيث تطلعها الدائب نحو السعادة والرفاهية والكمال التي كانت تنفذ
من خلالها تلك الفئات المستغلة من أجل تسخير هذه الفئة الكادحة واستغلالها
وتوجيهها نحو ما يحقق لهؤلاء الانتهازين مطامعهم الدنيئة وغاياتهم الشيطانية
وبمجرد أن يتم الاعتلاء والسيطرة لهؤلاء السادة على تلك الفئات حتى يتنكروا
لجهودها وتأييدها ومساندتها في مراحل صراعهم على السلطة .

ولكن لم تظل الحال على تلك الوتيرة ولم تظل الفئات المحرومة قابضة في
قواقع الحرمان والبؤس والسلبية ، ولكنها انطلقت تعلن التمرد في وجه النظم
الاحتكارية سواء أكانت عبودية أو اقطاعية أو رأسمالية مستغلة ، تطالب
بحقوقها الانسانية وحققها في الحياة والسعادة وبهذا انبثقت للوجود معالم نظام
متكامل ومن خلاله أصبحت للحياة معنى يستهدف تنظيم الوجود البشرى وتحرره
من قيود الماضي المتزمتة انها معالم الاشتراكية بأركانها الانسانية الخالدة ومجالاتها
الخصبة لنمو وتحقيق كافة متطلبات البشرية بتنوع مظاهرها وحدودها .

تطور الفكر الاشتراكي

ان تاريخ تطور الفكر الاشتراكي هو التاريخ الذي يسجل في سطورهِ مراحل نضال الانسانية من حيث تحقيق الكيان والذاتية الفردية بأعمق صورها وأشملها تعبيراً عن حقيقة خلائجانه ومتطلباته ونزعاته الكامنة التي تسمو بوجوده الى آفاق الانسانية المتكاملة الخالدة التي تتبلور فيها وتسمو بكرامة الفرد وتتبلور معالم الاستقرار الفكرى والمادى خلال البيئة الحاوية له .

ومن خلال هذا النضال نقف على كثير من المحاولات المستمرة والانتفاضات الجادة نحو تحقيق وتوفير حاجات الفرد اما بصورة خاصة أو بصورة شاملة تتضمن متطلبات المجتمع على السواء .

وبتتبع مراحل الفكر الاشتراكي نجد أنها كانت تنبثق من خلال ظروف وأحداث ذات طابع له خصائص ودلالات معينة تتلاقى في صفات متشابهة من حيث التكوين والآثار .

فالفكر الاشتراكي دائماً وأبداً ينبثق للوجود في مراحل يسود فيها الظلم ويعم الاستغلال والتحكم وتنضح فيه معالم استغلال الانسان لأخيه الانسان وعلى مر آلاف السنين ومئات القرون تبلورت حقيقة واضحة المعالم والآثار ألا وهي كلما كان هناك استئثار من قلة معينة في المجتمع لمصادر الثروات والأدوات الانتاجية ، كلما كان هناك فئات عريضة تئن تحت نيران الظلم وتنوء ظهورها من أثقال الاستغلال والسخرة والتبعية .

وحي ظل كل مجتمع من تلك المجتمعات الشاذة ذات التفاوت الطبقي من كافة الوجوه تتكون هناك أقلية تعيش عيشة البذخ والترف بينما الأكثرية تنجرع كؤوس الموت والحرمان ، تشقى وتكدح من أجل ما يقيم أودهم وذلك في مقابل رفاية تلك الأقلية التي تتحكم في مقدراتهم ومصادر معيشتهم ووجودهم .

وطوال تلك الآلاف من السنين ظل الفكر الانساني في صراع ومحاولات دائمة من أجل القضاء على تلك المظاهر المنحرفة عن الغايات الانسانية وانعدام الحقوق البشرية خلالها وهذا مايملاء قلوب المحرومين ولوعة وحسرة لوجود هذا الطغيان وهذا الكبت والاستغلال الناشئ عن قلة فاسدة معوجة .

ومضى تلافت تلك الأفكار الانسانية المتشابهة تقاربت مشاعر وأحاسيس الفئات العريضة المتطلعة الى حياة يسودها العدل والمساواة وتوحد السلوك البشري فكريا وماديا وانطلق نحو غاية تتبلور فيها معالم العدالة والاخاء والحرية والمساواة الحقيقية وتاريخ تطور هذا الفكر الانساني خلال تلك المراحل الهادفة الى تلك الحقوق البشرية الخالدة هو سجل يحوى في سطوره تاريخ تطور الفكر الاشتراكي على مر السنين والاعاجال .

والاشتراكية بمضمونها العميق ومعانيها السامية لم تكن في وجودها ولادة القرن الثامن عشر أو التاسع عشر أو ترجع إلى عصر النهضة بصفة عامة وإنما يمتد وجودها الى أعماق بعيدة ترجع الى سنين طويلة فيما قبل الميلاد وان كانت تعبر في وجودها بألفاظ مختلفة متعددة وكانت في نفس الوقت مضمونا واحدا لأسماء كثيرة مترادفة تهدف الى غاية واحدة وان تعددت السنين وتفاوتت الظروف التي تنبثق الى الوجود من خلالها فكرة الحياة الاشتراكية الخالدة وان كان هذا الفكر الاشتراكي يقتزن تارة بالفكر الخيالي والوجود اللامحسوس وتارة أخرى يتخذ الصفة المادية .

وتاريخ الفكر الاشتراكي الخيالي قد تسلم دعوته بعض الانبياء القدماء

الذين اندفعوا يدعون الى التاخى الانسانى فى مراحل كان يسودها الفساد والافراد مندفعون نحو المذات على حساب الفئات الفقيرة المحرومة ومن هؤلاء القادة نجد عاموس ويوشع وأشعيا وأرميا وحزقيال وغيرهم . فنجد هؤلاء قد أخذوا يتأملون مظاهر الوجود وتلك الهوة السحيقة التى يكاد يترلق فيها كائنات الفئات وتسوفهم نحوها أعمالهم الفاسدة الشريرة ونفوسهم المتعطنة .

وكانت دعواتهم تستهدف الإصلاح وتقويم النفوس وإقامة العدل وجعل الحق والرحمة تصدر السلوك الانسانى عامة وكان سيخطهم أيضا على شرور وفساد رجال الدين وتكبرهم لقصر العبادة على حرق البخور ووضع التعاويذ ، وبشروا بهلاك هذا القوم ونجاة هؤلاء المحرومين ووعدوهم بملكوت سماوى تتوفر فيه مايتطلعون اليه وينشدونه فى حياتهم ملكوتا يكون العدل شريعته والخير قوامه والرفاهية شعاره والمساواة مقياس الحياة فيه وتبديل حياتهم من أحزان وهموم إلى سعادة ورفاهية .

وهناك أنماط أخرى من العصور المثالية المتكاملة التى اتجهت لبعثها أفكار بعض الفلاسفة القدماء وجعلوها تتضمن فى محتواها أعمق معانى الاخاء والمساواة والرفاهية التى تؤدى بدورها الى تحقيق أركان السعادة من الحق والخير والجمال .

ومن تلك الصور جاءت دولة أفلاطون المثالية التى صورها عام (٤٢٧ - ٣٤٧ ق.م) واليوتوبيا « لتوماس مور » (١٥٦١ - ١٦٢٦) وأطلانطا الجديدة « لفرنسيس بيكون » (سنة ١٥٦١ - ١٦٢٦) وكريستيا نوبوليس « لجوهان فالنتين اندريا » ومدينة الشمس لكامبانيا (سنة ١٥٦٨ - ١٦٣٩) والفالنستير « لشارل فوربيه » وهذه جميعا صور لحياة انسانية فيها تقديس للحياة الروحية والاستقلال وإيجابية التحرر من النفوذ الاجنبى وتنظيم العلاقات بين الدول بغية الاستمرار فى الوقوف على ما توصل اليه العلم الحديث ومناهج التطور

وقد آمن كل هؤلاء بأن الفقر يجعل الناس كائنات لا قيمة لها والشراء الفاحش يحول أصحابها الى كائنات وقحة مغرورة لا أثر للعاطفة والأحاساس الانسانية في نفوسهم وخلال تلك الدول المثالية لا يكرم انسان إلا بقدر ما يشقى في عمله وبقدر أهمية العمل تبعاً للمجهود الذي يحتاج الى اتمامه والحكم فيها يكون عن طريق الاختيار الحر لفئات ذات ملكات والمأم بكافة فروع المعرفة .

وننتقي من تلك الأفكار دولة أفلاطون المثالية واليوتوبيا كأشكلة متكاملة لهذا الفكر الخالد وان كان فيها بعض الالتباسات والتذكر للواقع المادى للبشرية ولكنها في حد ذاتها أفكار خالدة مازالت تعتبر مناهجها معايير لقياس مدى تكامل الحياة الانسانية بصورة عامة .

وقد جاء الينا الفلاسوف افلاطون بدولته المثالية ووضع لها من الأسس والتعاليم التى تنظم العلاقات البشرية بين أفرادها مما يؤدى الى خلق مجتمع متكامل متناسق يتفق والطبيعة الانسانية في مفهومها الخاص .

دولة افلاطون المثالية

تتكون تلك الدولة من بضعة آلاف من السكان لا يعاو أحد منهم فوق الآخر وانهم جميعا على قدم المساواة فى كافة أوجه الحياة بحيث يكون هناك تنظيم معين من حيث انجاب الأطفال حتى لا تأتى نفس بشرية الى الوجود بدون أن يكون لها من القدر الكافى من الموارد الطبيعية التى تضمن لها حياة فاضلة سعيدة .

وقد قسم افلاطون الفئات الشعبية الى ثلاث فئات . . الفئة الأولى وهى الطبقة العاملة التى تقوم بإنتاج المواد اللازمة للحياة من مأكلى وملبس وشراب وتقوم ببناء المساكن . ثم حدد الفئة الثانية وهى فئة المحاربين التى تقوم بحماية هذا الوجود الانسانى المتكامل ضد أى عدوان خارجى ثم هناك الفئة الثالثة وهى فئة الحكام ورجال الدين وتؤل اليهم مسئولية تنظيم العلاقات بين الفئات الشعبية والتوفيق بين ارادتهم ومتطلباتهم الأساسية ونظرا لما لهذه الطبقة من حساسية وخطورة تبعا لجسامة مسئوليتها فيتحنم على الفئات الشعبية الالتزام بصفات معينة بحيث تتوفر مظاهرها فى هؤلاء الحكام وان يتم تدريبهم بدقة وعناية مما يضمن حسن اعدادهم وتأهيلهم لتسلم أعباء تلك المسئولية الحساسة .

وقد وضع افلاطون عدة مناهج يجب على جمهور تلك الدولة أن يلتزم بها فى سبيل الحفاظ على مظاهر دولتهم المثالية من كافة مظاهرها .

آثار الفضيلة الخالدة

استند افلاطون في تحديد معالم وآثار الفضيلة في أى مجتمع من المجتمعات الانسانية على حكمة جاءت على لسان استاذة الفيلسوف سقراط « أن الفضيلة هي المعرفة » وتلك العبارات في تكوينها البسيط تحتوى على معان عيقة للوصول الى الخير والفضيلة التى يجب أن تستند على المعرفة والتى لن تغأتى الا بالبحث الدقيق .

وألا تأخذ الموجودات من حيث الواقع المادى أو الروحى كفروض وقضايا مقدسة وانما يجب أن يشملها البحث والتمحيص فى ظلال التجرد من المصلحة الذاتية وانعدام البحوث من زوايا الأنانية .

التعليم

اختص افلاطون المناهج العلمية بأهمية خاصة . وجعل غايتها تستهدف المعرفة بفروعها المتباينة من أجل انشاء المجتمع الفاضل المثالى .

واهتم افلاطون بتربية النشء والجيل الصاعد الذى يعتبرون أوصياء المستقبل وتعتقد عليهم الآمال فى تسلم القيادة الجماهيرية وقد قسم المناهج العلمية من حيث غايتها العامة الى قسمين الاعداد المعنوى والاعداد المادى والذى يتفرد باعداد الاجسام الصحيحة المتكاملة السليمة .

الاعداد المعنوى الفكرى

اهتم افلاطون بالموسيقى وانما غريزة التذوق الابقاعى لما تعود بآثارها على السمو الفكرى والارتقاء بالمشاعر والأحاسيس مما يجعل هناك تذوقا للانسجام والتوافق الطبيعى الذى تنعكس آثاره نحو تذوق كل شىء فى الوجود متى كان بصورة متكاملة منسجمة وانما نجعل هناك قدرة فى النفوس البشرية المصقولة على ادراك أى اختلال فى تنسيق معين فيتقرب بذاته من كل ما هو متكامل وينوء على ما هو كربه ناقص . كذلك جعل هناك رقابة خاصة على نوع الموسيقى التى تقدم الى عامة الشعب خوفا من أن يتسرب اليهم ما هو ردىء أو يدعو للزيلة والانحراف فيأتى بعواقب وآثار غير مرغوب فيها والتى قد تفسد من احساسات العامة بدلا من السمو بها الى آفاق الجمال والاحساس بالانتاسب .

أما بخصوص الأطفال الصغار فيجب أن توجه اليهم عناية خاصة وتربية قائمة على أسس سليمة بناء وعلية فيجب أن يتلقوا من القصص والأساطير القديمة ما ينمى فى نفوسهم روح الشجاعة والاقدام والتقرب من الفضائل وتنفيث فى نفوسهم مبادئ الحق وضبط النفس ، كما يجب أن نمجد تلك القصص الالهية وتقرب النفوس منها وألا تكون بها فجوات يمكن أن تنتقد منها قدسية الآلهة أو تسخر منهم ، وبهذه التربية الروحية السامية يكون هناك جيل صالح قادر على ادارة الثنات الشعبية من بعد كذلك يكون هناك تعداد ضخم من جنود المستقبل على حماية بلادهم .

وهكذا يجب أن تستند مناهج وأساليب الدراسة على طرق حرة بعيدة عن وسائل الارغام والاجبار أو الضغط والتهديد وأن تنتهج بطريقة سلمية الغاية منها هو الوقوف على الميول الطبيعية والفطرة الشخصية التي يختص بها كل فرد دون الآخر وبهذا يمكن اكتشاف العناصر والخصائص الطيبة والابتعاد عن أساليب الاستعباد والاذلال .

الاعداد المادى البدنى

بعد تلك النثرة من الاعداد الابتدائى للنفوس وتهيئة العقول لتلقى الدراسة التاريخية الحقبة يبدأ الاعداد لتلقى الرياضة البدنية والتدريب العسكرى حتى سن العشرين وهذا لاعداد الجسم السليم الذى يحتوى على العقل السليم المتكامل ، وأن التدريب العسكرى يهدف إلى خلق الرجولة المتكاملة والاعتداد بالنفس وتحمل المسؤولية والشعور بالذات الانسانية وحب القداء فى سبيل العقيدة .

وبين تلك المرحلة من الإعداد الفكرى والبدنى يكون هناك فترة لأختيار الطوائف الممتازة من الذين لديهم الاستعداد والفطرة لتلقى المزيد من العلوم المتطورة من حساب وهندسة وفلك وموسيقى حتى يتسنى خلق الاستعداد الفطرى للتفكير المجرد وسرعة التعرف على خصائص الموجودات ويستمررون هكذا حتى سن الثلاثين فيتلقون علوم المنطق الفلسفية بما فيها من اكتشاف للاجناس والأنواع والفلسفة بلاشك تسمو بالفكر الانسانى المتطور نحو الإحساس بجواهر الموجودات من حيث العدالة والحق والجمال والتسالى يقتربون بسلوكهم نحو الكمال ، ومن يتفوق منهم يبرز فى هذا المجال ويثبت قدرته على سرعة تجاوبه وتوفيقه بين المثالية والظروف الطبيعية فانه يرتقى إلى طبقة الحكام المستقلين أو القضاة أو المشرعين .

ويتولى كل واحد منهم دوره فى الحكم كالتزام عليه وواجب لامفر منه

وهذا الحاكم من الأفراد الذين تكن في نفوسهم الاحساسات العميقة بمعاني الحق والشرف والشجاعة وفهم من الذاكرة الواعية وتحرم عليهم الملكية الخاصة وإنما يتقاضون أجورهم من المواطنين ومحظور عليهم اقتناء المعادن النفيسة أو التحلي بها لأنها تعتبر من الملذات الدنيوية التي تنتهى بالفناء والعدم بينما يجب ان يتحلوا بما هو دائم مستمر وهى الصفات الاخلاقية السامية والقيم الروحية الخالدة .

المرأة فى دولة افلاطون

كان للمرأة فى جمهورية افلاطون تقدير خاص جعلها تتساوى فى حقوقها مع الرجال وأن ما بين الجنسين من اختلاف وتفاوت فى الطاقة والقدرة على العمل هو اختلاف فى الدرجة وليس فى النوع أى أنه ليس هناك أعمال يختص بها الرجال دون النساء وأن الجميع على قدم المساواة أمام المتطلبات الأساسية للحياة .

وللنساء الحق فى الاشتراك فى الحروب والعمل والتعليم إلى آخر مراحلها كذلك لها الحق فى تعلم زمام الحكم وقيادة الجماهير وليس هناك تفريق إلا تقسيم العمل بالنسبة لمن بما يتناسب مع قدرتهن على العمل وما لديهن من طاقات متوفرة تمكنهن من الاستمرار فيه والقيام باعبائه ومسئوليته حسب الاستعداد الفطرى لكل منهن .

تحديد الاختصاصات في مجال العمل

كان لأفلاطون آراء خاصة إيجابية وأخرى سلبية في مجال العمل لبعضها آثار عميقة لانزال العقول الحديثة تنادى بها وتعمل على تطبيقها في مجال التصنيع والإنتاج ، كما وإن له آراء أخرى سلبية في مضمونها لا يصح أن تصدر من فيلسوف كأفلاطون يدرك معاني الحق والخير ويدرك الغرائز البشرية والمتطلبات الأساسية للوجود الإنساني وحقوق الأفراد في التعبير عما يحول في نفوسهم وحقوقهم في تقرير مصيرهم ووضع النظم التي تنظم علاقاتهم وتوفق رغباتهم. فكيف تنافى أفلاطون عن تلك الحقوق الانسانية الخالدة في اعتلاء الساطة وكيف جرد عامة الحرفيين منها وجعلها حقاً قاصراً على فئة الفلاسفة الحكام ، لهم الحق المطلق في وضع السياسات التي تترأى لهم واعتبر هذا أنجح السبل لتدعيم مظاهر الحق والخير بالنسبة للفتات الشعبية والتي ماعليها إلا الالتزام بها والرضوخ لأركانها وتعاليمها وليس هناك حق لهم للاعتراض عليها أو مجرد النقاش فيها فهذا ليس من اختصاصهم وعلى عامة الشعب أن ينصرف لأعماله ويترك السياسة لأصحابها المتخصصين فيها وذوى الكفاءات المعينة التي تؤهلهم لهذا العمل الحساس.

ولكن بجانب هذا القصور في فلسفة أفلاطون تجاه الموقف السياسي فهناك الآراء الايجابية من حيث تقسيم العمل وتحديد الاختصاصات كل في مجاله وفقاً لميوله ورغباته ومدى استعدادة الشخص الذي هيأته له طبيعته ، وعلى كل شخص أن يقوم بالعمل ويتفرغ له . فهذا مما سيؤدي بلاشك إلى ازدياد المهارة الحرفية وإتقانها . وعلى الدولة مسؤولية انماء هذا الاستعداد وتهذيبه على أسس علمية متقدمة حتى تصل كل موهبة إلى ذروتها بما يحقق انتاج متكامل متقن.

اشتراكية افلاطون

كانت نظره افلاطون العامة للفئات الشعبية هي نظرة انسانية تمجد الحقوق البشرية وتؤكد هذا التلاقى الغريزي بين الفئات الشعبية منذ الخليقة نحو استكمال مظاهر وجودهم على أساس تبادل الحاجات وعليه فليس هناك حق لأحد أن يستعبد آخر ويستتله ومن هنا جاء تقسيمه للفئات الجماهيرية في نطاق دولته فالحكام يدعون حراسا ومساعدين والرايا يدعون المواطنين المنتجين (١) .

والمعايير التي على أساسها يتم وضع كل فرد في مجاله واختصاصه هي ما عبر عنها افلاطون بالنبوغ والاستعداد الفطري والتي بواسطتها بين توزيع المواطنين على الطبقات الاجتماعية ومن أظهر نبوغا وتوقفا في مجاله قد يرتفع الى الطبقة التي تعلوه ، ومن يثبت فشله وانحرافه ينحدر الى التي تدنوه .

كما وأن افلاطون قد أشاد الى حق النمو الحر للصفات الجسدية والعقلية ازاء المواطنين على السواء فكل له الحق في العلم طالما كان عنده الاستعداد والميل وطالما يبدى استجابة نحو مناهجه المتباينة — وكل فرد في جمهوريته له الحق في العلاج متى يتدخل الى جسده المرض ويعجزه عن العمل فمكان هناك التزام نحو الأطباء للمحافظة على صحته وأبدان الجماهير كما لم تتجاهل الفلسفة الافلاطونية انحراف بعض الفرائز واندفاع البعض للتعدى على حقوق الآخرين فقد أوجب

(١) مشكلات فلسفية « للاستاذ عبد فراج »

افلاطون تخصص بعض الأفراد وهم من الطائفة الممتازة التي تتصف بالنبل والشرف والعدل والشجاعة ويقع على كاهلهم مسؤولية الحفاظ على النظام وحماية الممتلكات الشخصية فوضع النظم والقوانين التي تسيطر بواسطتها على السلوك الانساني وتجبره على الالتزام بالقوانين الوضعية وعليها أيضا متابعة السلوك الجماعي لتهدب المنحرفين وتحافظ على الحقوق .

شريعة افلاطون

« ان يكون لأحدهم زوجة خاصة به ، وهكذا يكون الأبناء على المشاع فلا يعرف الأب أبناءه ولا الأبناء آباءهم »

هكذا قدم افلاطون اقتراحا نحو زوجات الأوصياء المشرفين على أمور الدولة والمنظمين لها بعد أن تدارك بنفسه علة العلل في الأسباب التي قد تؤدي الى ظهور المحاباة وتفضيل الأبناء والوقوف بجانبهم حتى على حساب الفئات الجماهيرية وجعل هؤلاء الأبناء بحكم سيادة آباءهم سادة على باقي الأفراد يستغلون سلطانهم في ارتكاب الذنوب والمعصيات وعليه فقد حرم افلاطون على الفئات الحاكمة وعلى مساعدتهم الملكية الخاصة من حيث الزوجات وجعلهم شائعات بين الفئات الحاكمة فلا يختص أحدهم باحداهن وبهذا يكون أولادهم مشاعين .

أولا : عدم تعرض هذا الجنس الممتاز من الرجال والنساء للانقراض والآنكاش فتصبح الاسرة الحاكمة أسرة واحدة ترتبط برباط الدم والروح فاذا ما شب هؤلاء الأبناء أصبحت نظرتهم لهؤلاء الحكام نظرة الابن لأبيه نظرة تملأها الاحترام والتقدير والولاء .

ثانيا : تجنب تولد الفرقة والأحزاب بين الفئات الحاكمة وتضارب الغايات والمصالح .

هذا ما عبر عنه افلاطون من حيث شيوعية الزواج أما عن الملكية فكان له رأى آخر يحرم أيضا الملكية على هؤلاء الحكام بينما يبيحها للفئات الشعبية فلها الحق فى اقتناء الأحجار الثمينة وتكديس الثروات طالما أنها ستقتنيها عن طريق العمل والتجارة وليس عن طريق استغلال الساطة والمركز كما هو الحال اذا ما سمح لفئات الحكام من استثمار الثروات، وتكديسها فما لا شك فيه أنها سوف تستند على حريتها وعدم تعرض أحد لها بالنقد أو الحساب فتعبت فى الأرض فسادا وطغيانا لا يحدها أو يسيطر عليها شهواتها ومطالبها الخاصة . واستند افلاطون فى هذا الحرمان نحو الفئات الحاكمة على حسن التربية الاخلاقية التى تسبق اعتلائهم لمقاييد الحكم ومدى ارساء القيم الاخلاقية والمبادئ السامية التى تهذبهم وترقى بنفوسهم الى مستوى فكرى يدركون أن للحياة قيمة أسمى من اقتناء الثروات وتكديسها .

هكذا حدد افلاطون معالم وأبعاد جمهوريته الفاضلة التى تتلخص فى اعلاء مثل عليا وجعلها غاية منسودة يتطلع ويسعى اليها كل فرد على السواء ومن خلال الطبقة الاجتماعية التى ينتمى اليها بطبيعته وخلال تلك الحياة يقدم كل فرد أقصى ما يستطيع أن يقدمه الى أبناء مجتمعه من جهد و طاقة .

وعلى رأس تلك الدولة توجد فئة ممتازة لها من المواهب والاستعداد المتقدم ما يؤهلها للتحكم فى مقدرات اخوانهم فى الدولة وهى الفئات العاملة وتلك الفئة الحاكمة يجب أن تربي تربية فاضلة وعلى أسس متقدمة تسمو من خلالها القيم الروحية عن المظاهر المادية حتى يكونوا أقرب الى الحق والخير والجمال وهى خير ما تصبو اليه النفوس البشرية .

المدينة الخيالية لتوماس مور (يوتويا)

عرض توماس مور صورة لمدينته الخيالية عن رحلة بحرية قام بها ملاح برتغالي ذو ثقافة يونانية واسعة يدعى رافائيل هيثلوداي .

ونشاء الأقدار أن تقف سفينته على جزيرة « يوتويا » التي تركت في نفسه آثارا عميقة عن مدى التقدم والازدهار الذي حققته تلك المدينة ذات الشكل الهلالي وتبلغ من العرض ميلين وتتكون من أربع وخمسين مدينة تتفاوت المسافات بينها من أربعة وعشرين ميلا ولا تزيد المسافة بينها عن مسيرة يوم كامل وتتوسطها جميعا العاصمة « أموروت » .

والزراعة هي حرفة أساسية لسكان تلك المدن لأنها أساس الصناعة في مدينة مور الخيالية فكل فرد أن يلم باصول الزراعة إذا كان من سكان المدينة بغية تضامنهم جميعا لا سيما في فترات الحصاد على جمع الحبوب وغيرها من المحاصيل الزراعية .

والإنتاج الزراعى في تلك المدينة الخيالية يتم وفقا لتخطيط معين بما يتفق وحاجة المجتمع وكل فرد فيها يختص بعمل معين وتقسم ساعات النهار على أساس ست ساعات للعمل وثمان ساعات للراحة وباقي اليوم يقضيه الأفراد وفقا للميول الشخصية ، وليس هناك مجال لاستخدام الآلات المتقدمة في مقابل أن يبذل كل من الأفراد أقصى طاقته ومجهوداته في تأدية الأعمال القائم بها .

ويتم تبادل المنتجات بين أبناء المدن عن طريق ممثل لكل أسرة يتوجه الى أحد الأسواق المقامة في مناطق متفرقة من المدينة تجميع فيها المنتجات كل على حدة وبأخذ كل ممثل أسرة ما تحتاج اليه أسرته بدون ثمن نقدي وبدون أن يأخذ شيئاً فوق طاقته الاستهلاكية وليس هناك بطبيعة الحال حاجة لاقتناء النقود التي هي مصدر الخير والفضيلة ، ومصدر كل شر وأساس كل رزيلة كما وأن هناك نظاماً خاصاً للمساكن دقيق في بنائه رائع في تصميمه مزود بكل ما يتوفر لها مظاهر الجمال والابداع .

وتلتقي الأسرات في ساعات الطعام ليستمتعوا الى بعض المثلات التي تتعلق بالآداب والفنون الرفاية والاعتزاز بالفضائل الحسنى وفي أثناء وجبات العشاء تعزف الموسيقى أنغام شجية في جو يتشبع بأنواع البخور بحيث يشمل السرور والسعادة الجميع .

ونظام الحكم فيها نظام ديمقراطي قائم على انتخاب فرد من كل ثلاثين أسرة وكل عشرة من هؤلاء الرؤساء يتم انتخاب رئيس منهم وهؤلاء الرؤساء ينتخبون أميراً لهم مدة الحياة (١) .

ولكن في الأمور الهامة تعرض تلك المشاكل على أفراد الأسرات لإبداء آرائهم بخصوصها وعليهم متابعة السلوك الجماعي ومنع المتحرفين من الاستمرار في انحرافهم بل كل واحد منهم يؤدي واجبه بمجد واهتمام .

وإذا ما انتقل فرد من أفراد اليوتوبيا الى مكان آخر يجب أن يحصل على جواز سفر يخول له حق المرور بشرط اذا ما ازدادت مدة بقاءه في مدينة أخرى غير مدينته عليه أن يقوم بنفس العمل الذي تخصص بقيامه .

(١) الحركات الاشتراكية (هارى وليدل)

والتعليم فيها له اهتمام خاص لاسيما علوم الحساب والهندسة والأعمال
الزراعية والقراءات المفيدة .

وهكذا تكون غاية البوتويا توفير السعادة والرفاهية والاستقرار النفسى
والمادى لسكانها ومنع الأفراد من ارتكاب ما يجلب التعاسة والحزن لأفراد
آخرين .

ثم ننتقل بحديثنا من مجال التفكير الاشتراكى الخيالى الى المحاولات المادية
التي قام بها بعض من اشداد لهم التاريخ بزعم الفكر الاشتراكى وأول من أرسوا
مناهج تفكيره المادية مع مساهرة التطور السريع للرأسمالية وآمنوا فى أعماقهم
بأن التنظيمات المعقدة للنظم الرأسمالية ما هى إلا عقبة فى سبيل تحرر الانسان ، كما
وانها اذا ما تشعبت فى شتى الميادين تتبلور آثارها على هيئة أزمات اقتصادية
متلاحقة ويكون هذا على كاهل الطبقات العمالية وعلى حساب تدهور القيم
الاخلاقية .

ومن هنا جاءت حتمية ازالتها وتخطيطها ليحل محلها التنظيم الاشتراكى فى
كافة مظاهر الحياة حتى يشفى الانسان من يؤسه ويرتقى بوجوده من الفوضى
التي تستعبد له وتسوده ومن هؤلاء القادة سنكتفى بالتعرض لكل من الفكر
الاشتراكى لسان سيمون و روبرت اون و جون ستيوارت ميل ، ثم
بالاشتراكية القابية .

آراء سان سيمون الاشتراكية

كان لآراء سان سيمون عميق الأثر فى الفكر الاشتراكى عامة من حيث أنه
استهدف فى فلسفاته الاجتماعية والاقتصادية الارتقاء بتلك الفئات المحرومة التي
تئن تحت مظاهر البؤس والاستغلال والحرمان .

فقد اتجه سيمون باعتبار أن الصناعة تنصدر مظاهر الوجود البشرى من حيث كونها المصدر الوحيد لكافة الثروات والمصادر المادية اللازم توافرها من أجل الرخاء والسعادة والكمال .

ومن هنا اتجه بتفكيره نحو تطوير النظم الاجتماعية والوصول بها الى آفاق الكمال والتناسق ووضع لهذا التنظيم بعض المفاهيم والأركان التي يمكنها الوصول بالفتات الاجتماعية الى تلك الغايات التي تتطلع اليها الانسانية عامة .

ومن ثم ينبغي ازالة كافة العقبات القديمة والتي تعبر مترسبة ومتوارثة من قبل النفوس التي تحول في مضمونها دون التقدم المنشود ، وهذا لن يتحقق في مفهوم سيمون الا عن طريق التقدم بالمعرفة والارتقاء بمفاهيم الفئات العليا وارساء القسيم الثورية في نفوسهم لتمكينهم من الخروج عن النظم الاقطاعية والنبالة المتوارثة الى النظم الصناعية العلمية المتقدمة .

وينبغي كذلك اخذ انحاء الطبقات والقضاء على اسطورة الفئات العاطلة في المجتمع وذلك عن طريق تكاتف الجهود لانشاء رابطة مالية تضمن العمل للجميع وتكفل لكل عامل أن يحصل على ما يستحق ازاء عمله ، وكنتيجة لوجود العمل المضمون يتعين أن يعمل الجميع فيكون الكسول طفيليا ، ثريا كان أم متسولا ولا يمكن أن يقبل عند الجماعة لأنه يأكل ما ينتجه الآخرون فهو بهذا لا يزيد على كونه لص (*) .

وهكذا فالمساواة في مفهوم سيمون تعنى بأن كل فرد يجب أن يحصل من المجتمع بقدر ما يبذله من جهد وطاقة وبهذا تصبح كل الفئات الاجتماعية تعمل في ظل نضام اجتماعي هدفه الرفاهية والرخاء ووسيلته انجاز الأعمال

(*) الحركات الاشتراكية (هارى وليدل)

بطرق سليمة ذات فاعلية وإيجابية .

وعن الملكية الفردية فقد شدت إليها أفكار سان سيمون واختصت بجانب كبير منها واستهدفت تنظيمها بطرق تخدم في النهاية الصالح الانتاجي العام وانتهى الفكر السيمونيزم (*) الى أن تلك الملكية التي تأتي للفرد عن طريق المهدفة والوراثة ويصبح بهذا تلقائيا يتحكم في ادارتها والاحتفاظ بعائد أرباحها حتى ولو كان هذا الرج الفاض على حساب الفئات العاملة بحرماتها وبؤسها وشقاءها ، فيجب أن تبدأ المساواة بين الفئات من نقط متساوية وبداية واحدة من حيث المستوي المادي والفكري ويصبح بعد هذا لكل نصيبه حسب طاقته وعمله ، وتحقق عدالة التوزيع المتساوية للملكية .

ثم يلي هذا اتباع أنجح السبل التي يمكن استعمالها من أجل تسيير عجلة الانتاج بحيث تؤول ادارتها الى ايدي ذات كفاءة وخبرة حتى يضمن بذلك أن يكون هناك توازن فيما بين توزيع عمليات الانتاج في مظاهرها المختلفة ، فلا يكون هناك تبذير في احداها على حساب قصور في الاخرى ، وانما هناك تنسيق ونظرة عليا بين حاجات الاستهلاك وموارد الانتاج المتوفرة .

وهذا ان يتأتى بمفهوم السيمونيزم إلا باستيلاء الدولة على وسائل الانتاج وتوزيعها تبعا للحاجات ووفقا لسياسة عليا سبق دراستها وتخطيطها بما يتفق والصالح العام ، وبهذا يتم منع الاحتكار الفردي لوسائل الملكية الانتاجية والتي يستتبعها احتكار للجهود الانسانية التي لا تملك إلا جهودها وطاقاتها للعمل في سبيل لقمة العيش .

ومن ثم فيمكننا الانتهاء بتلخيص آراء (سان سيمون) واتباعه فيما يلي :

(*) السيمونيزم : الآراء التي انتهى اليها سان سيمون وتوارثها فيها بعد تلاميذه واتباعه وعرفت بمذهب : (سان سيمونيزم) .

أ - الدولة هي التي يمكن أن تقع على كاهلها أعباء تنظيم عمليات الإنتاج وخلق اتزان في كافة القطاعات ووفقا لاحتياجاتها .

ب - القضاء على الفوضى في عمليات الإنتاج والاستهلاك .

ج - منع استغلال الانسان لأخيه الانسان .

آراء روبرت أوين الاشتراكية

يعتبر روبرت أوين من مؤسسي النظام الاشتراكي في انجلترا .

وقد جاء بتعاليمه ومناهجه وفلسفاته الاجتماعية والاقتصادية في ظروف أدت فيها الثورة الصناعية الى :

أ - تكديس الثورات في أيدي رجال المال .

ب - انتشار البؤس والمرض والبطالة بين الفئات العمالية ومن هنا كانت فلسفته تؤمن بحقوق تلك الفئات وتتطلع الى تحقيق مجتمع يشعر فيه كل فرد بإنسانيته وكيانه ويحصل على كافة حقوقه واحتياجاته من قبل المجتمع .

وكانت فلسفة أوين تستهدف تحقيق السعادة للانسان وتؤكد تلك الحقيقة المعبرة عن هذه الالتقاءات الاجتماعية بصفة عامة نحو تحقيق أعمق وأدل معاني السعادة لأكبر قدر من الأفراد ولكنه استدل على انه تبعاً لموضوع الانسان بفئة تحيط به ويعيش في نطاقها ويتعامل مع ابنائها فهذا مما يؤثر فيه ويجعله يختص بصفات معينة أما من حيث السلوك الطيب أو الشرير .

وعليه فهو يهتم اهتماماً بالغاً بمظاهر البيئة الاجتماعية والتي تتبلور في عدة نقاط لها أعمق الاثر في الحياة الانسانية وأخذ يتعرض لكل منها من حيث :

أولاً - التعليم يجب أن يكون إجبارياً عاماً لكافة الفئات بحيث يبدأ بتعليم الأطفال المبادئ الأخلاقية السامية وأرساء مبادئ التعاون والتضحية في نفوسهم حتى يتمكن هذا المجتمع من خلق النفوس المتكاملة السامية البعيدة عن مظاهر الانحلال والسلبية والتي لا تجد طريقاً أو نفرة يمكن أن تتخلل منها .

ثانياً - يجب توافر مظاهر الثراء في احضان هذا المجتمع حتى ترتقي احساسات الفئات ويسمو وجودهم ونقضى على هذا المجال الخصب الذي تنمو فيه نواة كثير من الشرور والانحرافات إلا وهو مجال الفقر والحرمان .

ثالثاً - يجب توفير العمل لكل من يطلبه وذلك عن طريق انشاء مكاتب العمل التي يتقدم إليها كل محتاج وفقير لتمده بالعمل الذي يحميه من وائلة التشرد والضياع .

وقد حاول بالفعل روبرت أوين تحقيق أحلامه هذه وذلك بأن قام بإنشاء مستعمرة «نيوهارفى» وحاول من خلالها تنسيق العلاقات بين أبنائها وتوفير كافة متطلباتها واقامة النظم التعليمية والرعاية الصحية حتى يخلق بهذا المجتمع نوعاً جديداً يقوم على أسس فاضلة توحد المصالح وتزيل كافة دوافع النزاع والصدام بين النئات ولكن تلك المحاولة لحق بها الفشل وداهمه اليأس لأنه ولا شك قد قام بتطبيق مبادئ المساواة المطلقة بين الفئات من حيث الكفاءات وتنكر للحوافز وقيمة الجهود الانتاجية بين الفئات .

وهكذا فهم لحق بهذا الفكر المثالى من فشل مرة بعد الاخرى إلا أنه قد ترك آثاراً فكرية انسانية خالدة بتوجيه انتباه الفكر الى بشاعة الاستغلال الصناعى وانجه كذلك الى تمجيد الطاقات البشرية المنتجة ، والارتقاء بوجودها . ونادى بأن انطلاق الفئات من وراء الربح تعد فى مضمونها خطيئة تتسبب فى تدهور الجنس البشرى عامة .

وعالية فكان روبرت أوين ينشد المجتمع الذي يمرر الانسان من اعبائه وعقده لا يشغل على كاهله باعباء جديدة.

آراء جون ستيوارت ميل الاشتراكية

يعتبر جون ستيوارت ميل من قادة المفكرين الاقتصاديين الذين فتحو آفاق الفكر للاقتصاد الموجه والاشتراكية وان كانت تدعو الى الحرية الانتاجية والمنافسة بصفة عامة وهذا ما يقربه من المدرسة الكلاسيكية حيث الاقتصاد الحر. ومن ثم فجمال بحثنا هذا لا يتسع لعرض كافة آراء ميل الاقتصادية وإنما سنتقى منها ما يخص بحثنا هذا من حيث القيم الاجتماعية الاخلاقية التي نادى بها هذا المفكر.

وكانت آراء ميل تتعارض في مضمونها مع الفكر الاقتصادي الذي كان ينادى بالحرية الاقتصادية من حيث قوانين الانتاج ونظم التوزيع ولكننا نجد ميل وهو يؤكّد حتمية التوجيه الاقتصادي من حيث ضرورة توزيع عائد الانتاج بحيث يعود على تلك الفئات التي تبذل جهودها وطاقاتها من أجل تسيير عجلة الانتاج.

وقد أصاغ ميل في مبادئه فاعلية التنافس وأثرها في التنمية الاقتصادية وأكد قانون الوازع الشخصي ولكنه وضح تلك النقاط في الاسترسال نحو ابراز محاسن التعاون وآثاره الخالدة من حيث مدى تقريبها من المثل العليا الاخلاقية، وبالتعاون تتمكن الإنسانية من القضاء على مظاهر النضال والتصادم الطبقي وتدفع الفئات نحو العمل المتضامن المهادف الى الصالح العام والرخاء المادي والروحي في نطاق وجودهم وقد أوجد ميل علاقة وثيقة بين القيم الاخلاقية ومبدأ تحديد النسل وأعتبر أن الأفراد الذين لا يستطيعون أن

يتحكموا وينظموا بين عملية تحديد النسل وبين الموارد المادية المتوفرة لهم بحيث لا يتأتى إلى الحياة فرد إلا وكان له القدر المالى الذى يمكنه أن يحقق له حياة سعيدة كريمة تسمو بوجوده عن مظاهر البؤس والحرمان ومثل هؤلاء الأفراد المتصفين بالقصور فى أبعاد التفكير والتقدير يحجب اعتبارهم خارجين عن القيم الاجتماعية الاخلاقية ويجب ان يعاملوا معاملة المنحرفين والخسارجين عن القانون .

وهكذا يمكننا الاستدلال عن الغاية التى كان يستهدفها « جون ستيوارت ميل » من وراء تلك النظريات والمبادئ وهى ان الارتقاء بالعمل الانسانى عامة يتجه لاشباع حاجاته وغرائزه باتباع سلوك يتصف بالرقى والسمو ويقترن بالقيم الاخلاقية والمعايير الانسانية .

الاشتراكية الفابية

وبصدد الاشتراكية الفابية سنحاول تلخيص أهم أهدافها وما ترمى اليه من غايات عليا خالدة .

فالاشتراكية الفابية تهدف الى بناء المجتمع بما يتفق والقيم الأخلاقية السامية والمثل العليا المتمثلة فى الأخاء والتعاون والحب وتنتمى لها سلوكا خاصا يقودها نحو تلك الغايات ويتصف بالتدرج كما أنها اتخذت لها الشعار الملائم التالى « يجب أن تنتظر اللحظة المناسبة على أكثر ما يكون الصبر مثلما فعل فاييوس وهو يحارب هانيبال ، وان كان الكثيرون قد انتقدوا تأخره ، ولكن عندما يحين الوقت المناسب يجب أن تضرب بشدة كما فعل فاييوس والا كان انتظارك هباء ولا جدوى منه » .

والفكر الفابى فى الواقع لا يتبع مدرسة فكرية معينة وانما يستلهم مناهجه

وفقا للواقع ثم يقوم بتطويرها وفقا لما يراه من الصالح العام . وتهدف الاشتراكية الفايبة نحو تنظيم المجتمع وذلك بتحويل الملكيات من تحكم الفردية والطبقية الى سلطة المجتمع حتى يضمن بذلك ادارته من أجل صالح المجتمع ، وعلى هذا النحو يتمكن من تحقيق مظاهر العدالة وضمان توزيع المزايا الطبيعية المتوفرة على كافة الفئات بقبابن مستوياتها .

وكان تعرض الفايبة للملكية الزراعية من حيث حتمية القضاء على الملكية الخاصة للأرض وعلى ما كان يستتبعها حينئذ من استئثار صاحب الأرض على منتجاتها اما بصورة مباشرة أو بصورة ربيع (١) مقابل التنازل عن الامتيازات التي تتمتع بها تلك الأرض .

وفي مقابل الملكية الزراعية تعرضت الفايبة الى ادارة رأس المال الصناعي وذلك بإبراز المدى البعيد والآثار المثمرة التي تعود بادارة الأموال في ظل التأمين وتحويل استثمار الأموال التي كان فائضها يعود على أصحابها الاثرياء لتصبح انماطا منسقة منتظمة ، وتكون تلك التأمينات للمرافق العامة الأساسية في البلاد وان كان من الممكن تعويض أصحابها في مقابل ما يؤخذ منهم وبهذا تخفف الطبقة العاطلة بالوراثة التي تجني ثرواتها على حساب شقاء السكادخين ويتحقق تكافؤ الفرص مع أكبر قدر ممكن من المساواة .

وكانت الدعوة للاشتراكية الفايبة تستند على نشر الآراء واجراء التغييرات الاجتماعية والسياسية التي تستهدف ارساء المساواة بين الحقوق المدنية وتساوى بين الرجال والنساء خلالها ، وذلك بفتح آفاق المعرفة وتحديد معالم العلاقات بين الفرد والسلطة من كافة مظاهرها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

(١) الربح .. هو ذلك الجزء من الأرض الذي يدفع للمالك لقاء استغلال الطاقات الاصيلة الخالدة للتربة .

ومن ثم فيمكننا الانتهاء بأن الاشتراكية الفابية كانت غايتها إزالة المتناقضات بين السلوك والمبادئ والقيم السامية التي تعتبر في مضمونها منبع الكراهية السافرة التي تولد الفرقة والانشقاق والتصادم بين الفئات البشرية خلال المجتمع الواحد .

نبذة عن الشيوعية الماركسية

انتهى التفكير الماركسي على أن العامل الاقتصادي هو أساس التاريخ ، وتقول النظرية الماركسية أن من الواجب عدم اعتبار الطبيعة والمجتمع مجرد تجمع طارئ ، لظواهر منفصلة ومعزولة وإنما العكس هو التعبير الصحيح عن هذا التلاق ، فجميع الظواهر الطبيعية والاجتماعية مترابطة ومتشابكة ويقرر الواحد منها الآخر . ونجد التعبير عن هذه العلاقة العميقة الجذور في قوانين التطور الاجتماعي والطبيعي كما وأن القوانين الاقتصادية هي أساس التطور في المجتمع من حيث دورها في تحديد نوع العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين الناس ، أي العلاقات في مجال الانتاج والتوزيع والمقايضة والاستهلاك .

ومن هنا جاء تعبير لينين بأن الاقتصاد السياسي لا يعني على الإطلاق الانتاج وإنما يعني العلاقات الاجتماعية بين العاملين فيه ، وبعبارة أخرى أن الاقتصاد السياسي هو علم تطوير العلاقات الاجتماعية ، الانتاجية أي الاقتصادية بين الناس ، وهو يوضح القوانين التي تنظم انتاج الثروة للمادية في المجتمعات الانسانية في مختلف مراحل تطورها .

ومن هنا يكون الاقتصاد السياسي هو أساس التطور الاجتماعي ومن خلال هذا التعريف نستدل على أنه علم تاريخي من حيث اختصاصه بسرد تطور المجتمعات منذ مراحل وجودها كما وأنه يعبر عن مدى حساسية هذا العلم من حيث اقترانه بمصالح الفئات البشرية الحيوية .

الاصاس النظرى للماركسية

وقبل أن نتعرض لبحث الأساس النظرى للماركسية سنحاول بمعرض موجز لآراء هيغل باعتبارها كانت فلسفة تأثر بها ماركس وتحمس لأركانها وأعطت تميزا خاصا لكل ما قدمه ماركس فى الفكر الاجتماعى .

فلسفة هيغل

كانت الفكرة السائدة حتى مطلع القرن التاسع عشر هو أن العالم والنظم الاجتماعية لها ميزة الثبات والاستقرار والأزلية ولكن بفجر القرن التاسع عشر أخذت تلك الفلسفة فى الاضمحلال تدريجيا لتحل محاسا فلسفة أخرى متطورة تنبأ بالتغير التدريجى والتطور الإنسانى .

وتصدر هيغل لخلق هذا المنطق الجديد وكانت الجدلية هى جوهر منطقها وانتهى بأن :

« التناقض أو التضاد أو النفي هو مصدر كل حركة وحياة ، وأى شىء لا ينطوى على تناقض فلن يتمتع بالحركة والقوى والفاعلية » .

وبالتالى أخذ ماركس فى بحث تلك المظاهر المتناقضة باعتقاده أن التقدم يبدأ منها

النظرية الماركسية

تقوم النظرية الماركسية على ثلاث قواعد أساسية :

١ — التفسير المادى أو الاقتصادى للتاريخ .

٢ — فكرة الصراع الطبقي .

٣ — نظرية القيمة .

أولا : التفسير الاقتصادى للتاريخ

وهو تعبير بأن التاريخ الاقتصادى باعتباره يمثل تاريخ العلاقات الاقتصادية المتداولة بين الفئات البشرية ونوع التعاملات فيما بينهم ووسائل الانتاج والتوزيع وهذا فى مضمونه سجل يحوى فى سطوره تصويرا وصياغة لتطور المجتمعات وتشكيل علاقاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والخلقية (١) .

والمقصود هنا بمادية التاريخ هو اعتباره العامل الرئيسى الذى يسهم فى تطور المجتمع الذى سيكون العامل الاقتصادى أى النمط الذى تسير عليه طرق التعاملات والتبادلات فيما بينهم ، وعليه فان طرق الانتاج فى الحياة المادية هى التى تحدد الطابع العام لتطور الحياة الاجتماعية وتشكيلها - فكل نمط من طرق الانتاج المتداولة يكون له طراز خاص من العلاقات الاجتماعية .

(١) الحركات الاشتراكية « هارى . و . ليدر » .

ولم ينته كل من ماركس وانجلز بجعل العنصر الاقتصادي فحسب هو الأساس العام للتطور الاجتماعي وإنما باعتباره الأساس ويكون الهيكل مكونا من الأشكال القانونية والانعكاسات التي تخلقها حركات الصراع الفكري والنظريات السياسية والفلسفة المتداولة وكذلك الفنون والآداب فكلها تؤثر وتتأثر بالعوامل الاقتصادية .

ثانيا : الصراع الطبقي

لقد افترض ماركس أن الثورة يتحتم وجودها تبعاً لوجود تناقض طبقي يؤدي إلى الصراع وأن الطبقة العاملة يزداد حالها سوءاً نتيجة استغلال الطبقة البرجوازية لقدرات وحقوق الكادحين .

وان هذا الصراع لن يزول إلا حينما تتحقق سيطرة الفئات العاملة (البروليتاريا) على أدوات الإنتاج والقضاء على الملكية الفردية نهائياً وبالتالي يتحرر المجتمع من كافة أنواع الاستغلال والتمييز والصراع الطبقي .

نظرية القيمة

لقد وضع ماركس نظرية القيمة وعبر عنها فقال « ان العمل هو الأساس الاجتماعي المشترك في جميع السلع ... والسلعة تكون لها قيمة لأن العمل الاجتماعي يتبلور فيها وكبر قيمة الساعة أو قيمتها النسبية إنما تتوقف على مدى كبر أو صغر ذلك الأساس الاجتماعي الذي يدخل فيها أو بعبارة أخرى على القدر النسبي من العمل اللازم لإنتاجها ، وعلى ذلك فالقيم النسبية للسلع إنما تتحدد بكميات العمل التي تبذل وتتحقق وتتجسد في كل منها (١) .

(١) ماركس - القيمة والتمن والربح

وإذا ما حاولنا تحديد القيمة لسلعة من السلع يتحتم علينا أن ندرك مراحل العمل المختلفة التي تمر بها السلعة حتى تخرج الى المستهلك ونتيجة تلاعب البرجوازيين في تلك القيمة والاستيلاء على فائض قيمتها التي هي من حق الطبقة العاملة (البروليتاريا) وهذا ما يتسبب في خلق الاضطراب وعدم التوازن بين القدرة على الانتاج والقدرة على الاستهلاك مما يخلق الأزمات والبطالة بين العاملين .

النقد الفلسفي للماركسية

قبل أن نتعرض للنقد سنحاول تلخيص ما انتهت اليه النظرية الماركسية من حيث :

- ١) جميع الدخول بخلاف الاجور ليس لها ما يبرر وجودها .
- ٢) لا مفر من الغاء الملكية الفردية بصفة عامة .
- ٣) لن تتحقق المساواة وازالة المتناقضات الموجودة في المجتمع إلا بالثورة .

أولاً : نقد مفهوم الثورة

ان اصرار ماركس على فكرة الصراع الدموي وحمامات الدم لم تصبح ضرورة من أجل تحرير الشعوب وتخليصها من تناقضات قد تكون فيها .

فن الواضح ان الانسان لا يثور إلا عندما يجول بخاطره وأعماقه تساؤلات لا يجد لها حلاً يخلق في نفسه الاستقرار فيثور لذلك . وهكذا فهو يثور بناء على جهله لأنه اذا ما تعقل يجد لها حلاً من خلال اتزان تفكيره وتعقله لأن الثورة النفسية تستهدف المعرفة والاصلاح ولكن الثورة المادية، وهي

ما ينادى بها ماركس ، هى ثورة التخريب والتدمير والجهل المصادر عن النفس البشرية ولكن لو تأنى الانسان وأدرك قواه العقلية والنفسية والروحية لانتهى الى ادراك ان الهدوء والأنزان والتصرف بعد التعقل هى من دلائل الارتقاء والتقدم - ثم ضد من يشور الانسان ويخرب ؟ نجد أنه يشور ضد نفسه وضد أخيه الانسان ، بينما هناك تجارب كثيرة للتحويل والإنطلاق نحو مجتمعات الرفاهية والعدل ، الى الاشتراكية والمساواة وتعتبر الجمهورية العربية المتحدة رائدة فى تلك التجارب فى مراحل انطلاقها السامية .

ثانيا : الصراع الطبقي

تدعى الماركسية بأن هناك طبقتين تتصارعا :

الطبقة التى تملك والطبقة التى لا تملك وانه يجب القضاء على الطبقة التى تملك وتكون بهذا دعوة جماعية نحو فردوس منشود فى الفكر الماركسى ولكنه فردوس مخضّب بالدماء والاضطرابات ، وينتهى الحال بالأفراد الى الأنسياق تحت حكم الجلاء ، فيفقدون بذلك شخصيتهم وكرامتهم ويتحجر تفكيرهم .

وتنتهى الحال كما انتهت به الشيوعية فى بعض البلاد طبقة ممتازة تتمتع بسيادة شاملة على كافة السلطات وعلى جميع مرافق الدول وتظفر دون سواها بجميع خيرات الدولة - يعيش أفرادها فى عزلة عن باقى الشعب لا يتخطى أبوابهم الا من سار فى ركابهم وآمن بمعتقداتهم ويعيش باقى الشعب فى رهبة مستمرة تحت قبضة الحزب لا يتمتع إلا بألفاظ رنانة جوفا عن الحرية والمساواة .

ثالثا : مفهوم الاشتراكية

عندما تتجه الماركسية للتنكر لحق الملكية وحق التوريث فهى بهذا تنكر حقائق نفسية تتعلق بالفرد ذاته وتكمن فى أعماقه منذ وجوده الأول كما وانها

تذكر لغرائزه وحقوقه .

فماذا سيحل بالفرد ؟ لا شك أنه سيصبح ترس في عجلة الإنتاج ومجرد ورقة من شجرة كبيرة إذا أصابها الذبول وزالت مصادر استمرارها وحيويتها سقطت واستمرت الشجرة في نموها الطبيعي هذا هو حال الإنسان في حالة حرمانه من غريزة الملكية وتسخيره فيما توجهه اليه الدولة دون أن يكون له من حافز أو رأى شخصى يشعر عن طريقه بأدميته و كيانه كإنسان .

الشيوعية والدين

عندما انبثق الفكر الماركسى يعبر عن مذهب فلسفى يعتمد على جملة مبادئ نراه قد وقف من الدين على العموم وقفة هى فى مضمونها تعبر عن عدم الرضاء واعتباره عثرة تعوق التقدم والأنطلاق بصفة عامة .

فإنذ أن قامت تلك الفلسفة الماركسية على أساس مبدأ النقيض أو التطور وذلك من حيث خضوع كل كائن مادى أو قيم ومبادئ روحية الى ظاهرة التطور والرقى عما هو أدنى الى مراحل عليا فاخذت تدعى بأنه لا يوجد هناك خلود للقيم الاخلاقية فى الحياة الانسانية حيث أن الخلود يتعارض والطبيعة المتطورة . بينما من دعائم الرسائل السماوية هى خلود تعاليمها وقيمها وان كانت لها من المرونة ما تتفق وتطور العقل البشرى إلا أنها لا تحيد عن مضمونها الحقيقى وغايتها الراسخة المتكاملة .

ومن هنا وقعت الماركسية فى أخطاء هى فى الواقع تقط سوداء فى تاريخها وذلك بأنها أطاعت صفة العمومية والشمول على كافة القيم والمبادئ فعلى سبيل المثال نجد أن القيم التى تعبر عن الحرية والعدل والمساواة والأخاء والحب ،هى خالدة خلود الانسانية ومقتربة بوجودها المتكامل الهادف الى السكال ، فالقيم

الانسانية كانت ومستظل هي المستويات العليا في السلوك الانساني ، والنهايات
المعظمى لتطور البشرية في انسانيتها .

وبالرجوع الى تعاليم القرآن الكريم نجد فيه من قيم ومفاهيم لازالت
نبراسا نهدي به الانسانية ونضيء لها جوانب حياتها المنظومة المعقدة ، فهي قيم
لازالت خالدة سامية حتى يومنا هذا لم يصبها القصور أو الاضمحلال وانما تزداد
قوة وفاعلية كلما تعمق الانسان في معانيها وتدارك غاياتها الكريمة.

ومن هنا يتضح الفارق الشاسع ما بين الدين والشيوعية من حيث أن دعوى
الأول تسايرة الطبيعة البشرية بوجودها المادي والروحي فتقربه من الأعمال
الصالحة والتساخي الانساني بينما نجد الشيوعية دعوة الانقلابات والثورات الجراء
منهجها تقييد الانسان وانعدام كرامته وحرية فهي أجدر بحياة الحيوانات
وأبعد ما تكون عن الصفات الانسانية الخالدة . ولا يتسع مجال بحثنا هذا لحصر
نقدنا من حيث القومية والسلطة والمساواة والمستقبل الانساني بصفة عامة
ولكننا ننتهي بأنه لا يمكن أن تكون الشيوعية فلسفة متكاملة قائمة بذاتها أو
تعبر عن الكيان الانساني لأنها بنت نفسها على المتناقضات لتخرج لنا متناقضات
أخرى في كافة مظاهرها وجودها وتعاملاتها وبذلك لم تكن إلا مجرد تعبير عن
صراع المفاهيم البشرية التي أوجدها الانسان نتيجة جهله وقصور تفكيره .

مدخل للاشتراكية العربية

الاشتراكية العربية والوجود الانساني

من خلال تلك الفصول السابقة نستدل على أن الانسان ما هو إلا كتلة من
المشاعر والأحاسيس تصرخ في أعماقه وتتضارب فيما بينها وتسبب له في آلام
مبرحة فتعكس آثارها عليه إما في صورة مادية أو أخرى نفسية .

والإنسان تصارع في داخله مفاهيم متعددة يسعى جاهدا لتحقيق ما نصبو اليه نفسه من آمال وآفاق ، وخلال تلك المحاولات تتحكم فيه عسدة غرائز ونزعات تلزمه تحقيق مآربها وغاياتها . وكما سبق أيضا أن استدللنا على أن تلك الغايات التي يسعى اليها الإنسان ليس لها حدود مطلقة أو نهايات ثابتة وإنما هي تتوقف على النفس البشرية في حد ذاتها ومدى طموحها وقدرتها على ادراك معالم النهايات التي تستقر بها نفوسها المضطربة وتنتهي عندها أحلامهم .

وفما يختص بتلك الأحلام والغايات فقد وفقنا على بعض المحاولات الانسانية التي سعت نحو تحقيقها اما في صور خيالية واما بصورة مادية باقصة لا تشبع في حد ذاتها النفس الانسانية الطموحة واذا ما تعرضنا للاشتراكية العربية فأحق لنا أن نتبع مناهجها وخطاها ومدى توفيقها نحو اشباع متطلبات النفس المتعددة من حيث واقعها المادي والروحي كذلك مدى توفيق أساليبها نحو التنسيق بين غايات وسلوك أبناء هذا المجتمع في حدود قدراته وامكانياته المتوفرة .

ومنذ أن انبثقت في الوجود أركان الاشتراكية العربية نرى أنها قامت على أسس فلسفية متطورة ارتقت بها حتى تمكنت من أن تقبوا مكانا بارزا في مجال الأنطلاقات الفلسفية العالمية متخذة لها سلوكا خاصا في الفكر وفي الحياة وفي التطبيق .

وتمكنت تلك الفلسفة من أن تبلور كثيرا من مراكز القوى ومصادر الطاقات التي كانت مستترة في بيئتنا المصرية وجعلتها شفاقة واضحة يسهل للعقول استدراكها والكشف عن مواطن وجودها وسبل استفلالها من أجل الصالح العام .

وقد اعلنت الاشتراكية العربية من خلال سلوكها على أن كل منهج من

مناهج تكوينها يرتكز على الحرية الفردية ومن أجل الفرد نفسه وبالتالي من أجل المجتمع بأسره كما وانها تداركت منذ انطلاقتها حتمية تحرير الانسان تحريرا كاملا من سلطان العلم المحدود ، والاخلاق التقليدية المستوردة والتاريخ الذى تكتب سطره بأيدي مزورة .

تداركت الاشتراكية العربية ان الانسان دائما فى حاجة الى قيم ومعايير تنحجم فى احساساته وعواطفه ، وبالتالي تؤثر على سلوكه وتكوين ملامح متطلباته الأساسية ومن هنا عبرت الاشتراكية العربية عن مقاييس تنبثق من خلال أحاسيس خاصة هى فى مضمونها أرقى وأسمى من المعارف الشخصية والامكانيات الفكرية المحدودة ، أو الادراك الذاتى الفطرى ، وانما وجدت هذه الاحاسيس لترتبط بين جوهر الموجودات الى حيث وجودها المادى أو الفعلى الحقيقى وتستند فى هذا الارتباط على مقاييس سامية ترتبط والمبادئ الانسانية والقيم الاخلاقية التى تعبر عن الجوهر السامى للوجود الانسانى عامة

وعليه فالاشتراكية للعربية جاءت تعتمد أولا وقبل كل شئ على التجربة والتاريخ والملاحظة العلمية والدراسات الميدانية . فجاءت تعبر عن تجارب هى مجموعة من الأفكار تتولد فى الفكر الانسانى وتتكون من خلال دائره معارفه الخاصة ومدى احتكاكه بمجالات التعامل المختلفة وتشتمل فى مضمونها على عناصر العلم والفن والقيم الدينية ، ودراسة لطبيعة احوال البشر بتحليل دقائق تفاصيلها . فتبلورت وكأنها تعبير صادق عن ماهية الانسان وكيف يتأثر ويؤثر فى البيئة الحاوية له .

ومن هنا جاءت المرونة فى اشتراكيته فهى تستهدف الرقى الانسانى فلا شك أنها ستقترن بالعلمية التى هى السبيل الوحيد للوصول الى ارقى المستويات وأكثرها تقدما وخصوبا ولكن ايماننا بالاشتراكية العلمية كأساس فى مذهبنا الاشتراكى لا يعنى هذا اعتبار جميع أركانها وأسسها وقواعدها مجرد قوانين

ثابتة متجمدة لا تقبل الحركة والتطور وإنما لها خاصية الانسجام مع اختلاف الأوضاع باختلاف الزمان والمكان ومع ما يفرضه الواقع عليها وتجبرها الظروف لا تتهاج منهج معين ولا تواجه الواقع بفكر ونظريات مغلقة يقيد ما لديها من قدرات وامكانيات .

فاستراكتنا العربية لم تنفتح الى الوجود ومقترة بالأفكار والمذاهب الخيالية التي تسمو بأصعبها عن حقيقة وجودها المادي وتغابر الفترات الواقعة عليها وتجعلهم يعيشون في عالم الأحلام والخيالات والتمنى كما وانها لم تأت لتقيم نفسها على فلسفات مادية بحتة وتهدد القيم الروحية التي هي جزء لا يتجزأ من الكيان الانساني .

فجاءت اشتراكية تستهدف تكامل كل من الجسد والروح كلاهما في نماء متوافق وان يتم الاصلاح بالاعتناع والتراضي لا بالعنف أو الأرهاب - جاءت اشتراكية تهدف لمجتمع الكفاية والعدل ، مجتمع بضمن خلق الحياة السعيدة المتكاملة وارساء قواعد الديمقراطية والجربة والمساواة فجاءت تجربة ضخمة رائدة متكاملة لم يسبق لها مثيل في الدول النامية الحديثة عبرت عن وجودها بمذاهب واضحة صريحة تستهدف التقدم المنشود .

الإشتراكية والحرية

الحرية في مضمونها العميق ومعانيها السامية ما هي الا تجسيد وتعبير صادق عن حقيقة النفس البشرية وهي ما نشده منذ وجودها ، ومحور تفكيرها من حيث حساسية وجودها من كافة المجالات الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعقائدية .

وبالرجوع الى حقيقة الانسان نجد أن حريته تبلور في مدى ابراز قيمة

وجوده وفكره كذلك على مدى تحرره من كل قيد والابساد التي تسمح له بالانطلاق والعمل .

فالانسان يحتاج في وجوده الى حريته لكي يدرك كيانه وذاته ، وقيمة هذا الوجود هي مقدار انطلاقه من وراء بحثه عن حقيقته والقضاء على عبودية الذات - وهكذا فالحرية هي مقدار ما يصل اليه الفرد من حيث اعلاء سلطته الشخصية والروحية والفكرية وسيادة العقل والوجود الانساني على باقي الموجودات المحيطة به .

والمشكلة التي دائما وأبدا يصطدم بها الانسان هي الكيفية والوسيلة التي تمكنه من الحفاظ على تلك المعاني وتوافر معالمها في نطاق وجوده . فليس هناك معنى للحرية ، والانسان مقيدا ومكبلا بالقيود السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

فهذا مما لا شك فيه ما يهدد من قيمة الشخصية الانسانية والقيم الاخلاقية والتعاليم السماوية .

ومن هنا جاءت الاشتراكية العربية تمجد الحرية في أعرق معانيها وتجعلها مقترنة بالانسان باعتباره كائنا ماديا والروح تدلل على وجوده . وتبعا لكون النفس البشرية قد تنقاد من وراء الوجود المادي والروحي بلا تروى أو تعقل وتصبح الفوضى بديلا عن معاني الحرية السامية .

ولهذا فقد عمدت الاشتراكية العربية الى احترام كافة تلك المتطلبات المادية والروحية ومنحتها آفاقا متباعدة تسمح لانطلاق الشخصية الفردية ولكن في نفس الوقت وضعت القيود الحابكة والضابطة للسلوك الانساني لتحول دون انحرافه عن مبادئ الحرية الخالدة من حيث عدم السماح باستغلال الانسان لأخيه الانسان .

الاشتراكية والتطور

الاشتراكية العربية تؤمن بالتطور ، أى تؤمن بجمعية الانتقال من مرحلة متأخرة الى مراحل أخرى أكثر تقدماً وازدهاراً . ولكنها لا تواجه تلك الظاهرة بأفكار متجمدة وآراء صلبة كبعض النظم والمذاهب التى انهمت بادائها بأن ما تدعو اليه ما هو إلا سدره المنتهى بالنسبة لتطور النظم الانسانية .

فالاشتراكية العربية تعبر عن نفسها بنظام عادل ترتقى به الانسانية وتتطور من مراحل تسود فيها مظاهر الاستغلال والاحتكار والانزاع والسلبية والتخلف ، الى آفاق تعلوها يسود فيها الاستقرار والتفاعل الاجتماعى الايجابى والعدالة الانسانية ، تزول فيها مظاهر الانزاع من وراء أسوار التخلف والتقوقع ، وأنها تندد بالجمود والسلبية أمام مظاهر الاستغلال وتدعو الى تمجيد الحرية والمساواة والأخاء الاجتماعى .

اشتراكية تؤمن بأن التطور لا يتبلور معاملة إلا بفهم الانسان حقيقة نفسه . وحقيقة متطلباته ومشاعره ودوافع سلوكه وهذا بالتالى ان يتحقق إلا بتطور الانسان وارتقائه وتحرره من عبودية الجهل والتخلف والانكماش .

وعليه فالتطور الحقيقى ما هو إلا الانطلاق نحو مزيد من الكمال بمزيد من الادراك والفهم حتى تتمكن الانسانية من الوصول الى الجوهر الذى تتطلع اليه وتشعر من خلاله بالاستقرار والرفاهية والكمال .

الإشتراكية والمساواة

لقد وجدت الانسانية فى حالة من المساواة من حيث العقل والروح والنفس وبالتالى تلاقت حول جوهر أصيل من حيث الوجود الانسانى عامة .

فلاشتركية العربية قد تعرضت لتلك القضية بتبسيط عادل ودراسة مستوفاة ولأعنتى معانى الانسانية وجوهر وجودها الحقيقى والسنين التى تسير الحياة على منوالها .

فلا شك أن مبدأ التسوية ليعد من البواعث الأساسية للحياة المتكاملة حيث أنها تهدف الى توسيع أبعاد النمو الفردى وبالتالي التقدم الاجتماعى ، وفى نفس الوقت قد تؤدي الى حالة من الانحلال الفردى والأنحطاط الاجتماعى اذا ما تدارك مفهومها على نمط خاطئ . شاذ يتناقض والقواعد الاخلاقية السامية فلو تعرضنا لمضمون كلمة « المساواة » فهل هى تعنى مجرد المساواة المطلقة ، اللاحدود لها أم هى تعنى المساواة فى الحقوق فحسب أو فى الواجبات الانسانية بصفة عامة لا شك أن هذا السؤال قد يؤدي بنا الى عدة نساءلات عن غاية تحقيق هذا المبدأ فى نطاق المجتمع وما هى الحدود التى يجب أن تنتهى إليها وتصل الى أبعادها مع العلم بأنه لا تتوفر لدينا مقاييس للعدالة أو المصاحبة العامة أو الخير العام .

ووفقا لعدم توافر تلك المقاييس تصبح قضية المساواة هى مشكلة الإنسان .

واننا لا ننكر أن المساواة حق من حقوق الانسان فى نطاق البيئة الاجتماعية الحاوية له ولكن هل تلك المساواة من حيث وجوده المادى أو مساواة من حيث المفاهيم والقيم الروحية بصفة عامة ؟؟ . هذا هو محور نساءلنا .

ولنا أن نلقى الضوء على حقيقة الوجود الانسانى ومدى شرعية تحقيق مبدأ المساواة بالنسبة له .

ابتدأت الحياة الانسانية بمحاواة مطلقة باعتمق معانيها وأسمائها ، وتطورت السنين وتعاقبت القرون وأصبحت المساواة لا تتحقق معالمها إلا فى صورة مغلقة تتبلور فى نطاق كل طبقة على هداها ويتبع هذا أبعاد معينة للتفكير البشرى

في حدود تلك الطبقة .

وعليه فأصبح هناك مفاهيم تلتقي عندها الفئات من حيث تطلعيهم الاجتماعي نحو السعادة والرفاهية والاستقرار المادي والروحي ، ومن هنا نصطدم بحقيقة رهيبية من حيث جوهر تلك المفاهيم فنجد أنها تختلف في الأبعاد والمظاهر من فئة لأخرى وبيئة لأخرى فكل فئة تعيش في حدود طبقتها ترفع شعارات ومفاهيم بقدر امكانياتها وقدرتها التي تمكنها من تحقيقها وتوفير مظاهرها .

وخلال هذا الصراع نجد تلك الفئات المحرومة لا حرية لها ولا مساواة إلا في التطلع والتمنى ، والواقع يحد من تطلعاتها ويكبت من أمانها ويشل من طاقاتها وقدراتها نحو التحرر من قيود الطبقة الحاوية لها .

ومن هنا جاءت الاشتراكية العربية بفلسفة خاصة آمنت بمساواة البشرية من حيث القيم والمفاهيم والمتطلبات الأساسية وجودها ، واستنكرت تلك القيود التي تحد من تطلعات الفئات المحرومة وجاءت بمفهوم خاص للمساواة من خلاله يكرم الفرد ويحد من الاستغلال ويحترم الفرائز والنزعات وتوفى بين هذا كله وامكانيات الدولة فجاءت المساواة : —

١ — تسمح بحرية التطلع وفقا للفرائز الأساسية الكامنة في النفس البشرية وتصرخ في أعماقه من أجل اشباعها .

٢ — آمنت بالمساواة في الحقوق الطبيعية البشرية من حيث الحفاظ على الانسان من آلام المرض وحرمان النفس وحقه في الاستقرار المادي والروحي .

٣ — تحترم ما في النفس من حب التملك التي تعتبر من الفرائز التي وجدت منذ خلق الانسان وانما بشرط ألا تتعدى على حريات الآخرين أو تستغلهم .

٤ — آمنت بأن ممارسة التسوية قد تؤثر في التقدم أو الانحطاط وهذا بالتالي يتوقف على نوع هذه التسوية ، وعليه فقد راعت عند اعلاء راية المساواة أن يكون هناك تقدير لحكمة الخالق من حيث خلق الناس متفاوتين في أحوالهم

واستعداداتهم وطاقتهم وميولهم .

فمنهم ذوى القدرة على العمل الخلاق ومنهم الخاملون ، وتفاوت درجات الذكاء فيما بينهم من حيث العلم والمعرفة ، ومنهم من يقبعون ويستسلمون للجمل والانعزال ومنهم العاقرة ومنهم العاديون .

وفي قول الله تعالى « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »

وهكذا فالمساواة في الاشتراكية العربية دعوة تقتزن بالعدالة الاجتماعية لا تستهدف ما هو خارج عن حدود وامكانيات الطبيعة البشرية ، وإنما تبغى للتساوى في كافة الفرص التى تفاوتت تبعاً لظروف غير عادية وأوضاع شاذة وهكذا جاءت الاشتراكية العربية تؤمن بأن الافراد تتساوى جميعاً من حيث حقوقهم الطبيعية واحتياجاتهم الأساسية ، وجعلت هناك المفاهيم والقيم لحياة أكثر رفاهية ولكنها فى منأى لا يصل إليها إلا من تحكم فى سلوكه وغرائزه وراعى ضميره فى سلوكه ، وآمن بالعمل المسند اليه وأظهر احترامه للانسانية بصفة عامة .

ويجب ألا يبعد عن أذهاننا بأن تلك العبادة التى تنهت بأن جميع الناس يخلقون سواسية من حيث الواجبات والحقوق لا يمكن اعتبارها قاعدة عامة وإنما فى واقعها أن الناس جميعاً سواسية أمام الله وأن أرواح الناس لها نفس المرتبة ونفس التقدير عند الله سبحانه وتعالى ، وهى كافة المجتمعات البشرية أن تحترم هذا المخلوق الذى صنعه الله - ولكن اذا ما كان هناك تعميم فى تطبيق مضمون تلك العبارة فحيكون هناك مجال خصص لوجود أولئك العاجزين والمتطفلين .

الاشتراكية من حيث السلبية والايجابية

الاشتراكية العربية كفلسفة انطلقت لتسمو بالوجود الانسانى من كافة مظاهره ولا شك أنها قد جعلت لها قيماً سامية تحتم على تلك البيئة الأجتماعية

أن تتقرب نحوها بالقدر الذى يحقق غايتها ومفاهيمها التى تستهدفها .

والاشتراكية بما لديها من قدرات على اعطاء صفة خاصة للسلوك البشرى ومظاهر التعاملات المختلفة فانها قد اتخذت لها موقفا واضحا صريحا من حيث سلبية السلوك وايجابيته وجعلته من الظواهر التى تعتبر مقياسا لمدى فاعليتها ونجاحها من قبل الجماهير .

والسلبية فى هذا المقام تعبر عن تلك المواقف الجامدة التى قد يتخذها بعض الأفراد كظاهرة من الظواهر التى تنظم علاقاتهم ووجودهم بصفة عامة سواء من الناحية الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية حيث أنهم يتقبلون ما يفرض عليهم من قوانين ونظم لا يقدمون شيئا إلا طاقاتهم المادية وأن لم تكن خوفا من العقاب فقد تكون مجرد السعى وراء متطلباتهم الأساسية من مأكل ومسكن وملبس .

ولكن فى الواقع فالاشتراكية العربية تدعو الى الإيجابية بأعمق معانيها وأوسع حدودها فهى تنشئ من تلك الفئات الإستجابة إليها عن إيمان وتعقل وتفهم لأصولها وغاياتها الإنسانية السامية - تطلب المشاركة الفعالة بالنقد الذاتى البناء والتعبير عن الارادات باقصى حدودها لأنها ستقابل حينئذ بالاحترام والتقدير إذا ما كانت صالحة تستهدف الصالح العام واما فقد تقابل بالمناقشة الحرة حتى يقف صاحبها على نواحي قصور ادراكه ويكمل مظاهر نقصه ونقرات تفكيره حتى يصبح هناك التبحر الفكرى وعقائدى بين الفئات ويتم توحيد الثغرات التى بينهم ومواطن الضعف مما لا يمكن بعض الدخلاء المخربين من بث سمومهم وعرقلة الانطلاق الجماعى نحو الرخاء والرفاهية والكمال .

الإشترائية العربية والحوافز

مما لا شك فيه أن الحوافز بمظاهرها المتعددة تعتبر استجابة واقعية لطبيعة النفس البشرية تبعاً لما تتحكم فيها من نزعات وخلجات وغرائز متباينة تتصارع

في أعماقها وبالتالي فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن تنكر آثارها البعيدة أو تقلل من شأنها من حيث مدى تأثيرها الفعال على السلوك البشري بصفة عامة .

وعليه فالخوافز تعتبر من القضايا الهامة من حيث بحثها في النظم الاشتراكية التي تستهدف في مضمونها مجتمع الرفاهية والعدل والكمال ولأن تتحقق مظاهرها الا بتشغيل كامل لكافة الطاقات المادية والبشرية المتوفرة لدى المجتمع لأبعد حدود لها وأقصى قدرات متوفرة لديها .

ومن هنا فالخوافز في مضمونها تعتبر قوة انتاجية دافعة تحت الفئات العاملة على الانطلاق ورفع مستويات الانتاج وانتهاج سبل الابتكار والتفنين والابداع بما يعود عليهم بالرفاهية والكمال .

وهذا ما تصبو اليه النفس البشرية عامة فلكي تزيد القدرة الشخصية للعمل ينبغي تطبيق نظام واسع من المميزات التشجيعية بصوره المختلفة التي تنغلغل في أعماق النفس البشرية وتثير من انفعالاتها ما يدفعها على الانطلاق نحو العمل بأسمى معاني التضحية ونكران الذات والاستقرار .

وتختلف الخوافز من مجتمع لآخر تبعاً للنظم التي تتداول من أجل تنظيم العلاقات الانتاجية والاستهلاكية في المجتمع ، فقد تكون في وجودها معبرة عن حوافز سلبية أو حوافز ايجابية .

والخوافز السلبية تعتبر من الأخطار الجسيمة التي تهدد كيان العمال في المجتمعات الرأسمالية والتي يصبح فيها الخوف السلبي هو الحافز على العمل من أجل ضمان الاستمرار فيه حفاظاً على ما يقيم أوده ويقويه شر الجوع والحرمان للشاهل ، وتلك الخوافز السلبية بمعناها اللاإنساني تنصدر النظم الرأسمالية والتي تعتبر السلاح الذي يلوح به صاحب رأس المال ليجبر الفئات على العمل حتى يزيد الانتاج وبالتالي تزداد ارباحه وتكسده ثرواته ويساعده على فاعلية تلك

الحوافز وجود جيوش من العاطلين ينتظرون من تنهار قواه وتشتت طاقاته وقدرته على العمل في ظل هذا الاستعباد ليتها فتو على احلال مكانه في ظل السخرية . . وبهذا لن يكون هناك حاجة الى صاحب رأس المال للتفنين في اغراء العامل أو حتى مجرد افنائه بهذا العمل أو الألتجاء الى الحوافز الايجابية من زيادة في الأجور أو المكافآت الإنتاجية ... الخ .

أما الاشتراكية العربية فهي تنجيه الى الحوافز الايجابية بصفة تلقائية تبعاً لخصائصها الانشائية الكريمة الخالدة فهي تؤمن بأن سياط الجوع والحرمان والارغام بالقوة ووسائل الارهاب لن تكون في يوم من الأيام الدعائم التي تقوم عليها العجالات الانتاجية فيادين العمل لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تصبح معسكرات تساق اليها الفئات العاملة تحت رهبة الجوع والحرمان وانما لها شعورا غريزيا نحو الحرية الفردية تكون شعار الرباط المقدس الذي يربط ما بين العامل وعمله حتى يصبح العمل باعثا على السرور في نفوسهم بدلا من أن يكون عبثا وثقلا تنوء تحته ظورهم .

فالاشتراكية العربية تنجيه لخلق روح الابتكار ونكران الذات في نفوس العاملين بعدد أن تضمن لهم أسباب الحياة ، وتطرد عن أذهانهم كل شعور بالقلق بالنسبة لمطالب المستقبل المادية ومن حيث تأمين المستقبل بخلق الاطمئنان التام من حيث المعيشة فهي قبل أن تجبره على العمل تضمن له احتياجاته اليومية له ولأسرته وبهذا تختفي الرغبة وتسلط سلطان جمع الثروات وتكديسها ويتجه كل فرد نحو التمتع بمباهج الحياة بدلا من الصراع لأجل توفير فرص الحياة . ومن هنا تنبثق الى الوجود الرغبة في الاجادة والابتهاج في العمل الخلاق والطموح الى الارتقاء والتحسين والإهتمام بكسب احترام المجتمع .

والاشتراكية العربية في نفس الوقت لا تترك ثغرات في نظمها يمكن أن يتسلل عن طريقها بعض الكسالى المقامرون أو المتطفلون فنظم المكافآت والأجور لا يمكن أن تكون مجرد اشباع احتياجات الأفراد بعد المساواة فيما

بينهم من وسائل الراحة والخدمات التعليمية والصحية المجانية الى غيرها من الخدمات العامة واصبح بهذا نظام تحديد المكافآت والأجور أكثر ارتباطا بإنتاجية كل عامل من العمال هذا بعد انطلاقتهم نحو العمل من خط متساوى وفرص متكافئة .

وأصبحت التفرقة في جداول الأجور تبعاً لمدى المهارة والضمير في العمل والقدرة على الاستمرار فيه وبهذا يصبح كل فرد في مجاله يطمح في الوصول الى مستويات عليا من المهارة ليحسن مستواه في العمل لما يترتب عليه زيادة في أجوره التي تفتح له آفاقاً أكثر اشعاعاً وأبعد حدوداً للتمتع بمباهج الحياة ومظاهرها .

الاشتراكية العربية بين المادية والروحية

عندما نستقرئ في الحديث عن الاشتراكية فاننا لا نهدف الى مجرد تنسيق بعض الكلمات لخلق تعبيرات جذابة أو لمجرد جذب العقول نحوها وخلق استجابة مصطنعة من قبل الأفراد حول مبادئها وأركانها .

ولكنني انتهج في بحثي هذا عرض مناظرة عامة ما بين احتياجات التطبيق الاشتراكي وأركانه ومدى التقائه والآمال العربية للبشرية ، والحثية التاريخية التي فرضتها الطبيعة المتغيرة للإنسانية على مر السنين والأجيال - كذلك على مدى استمدادها لأصالتها وفروضها من خلال تطلعات الجماهير الواسعة نحو مجتمع أفضل ، مجتمع الرفاهية والعدل والكمال .

فالاشتراكية وإن كانت مجرد نظام اجتماعي اقتصادي سياسي إلا أنها قبل أن تكون هذا فهي فلسفة عميقة تستجيب لكل من جانبي الوجود الإنساني عامة من حيث واقعه المادي والروحي أي أنها في حد ذاتها فلسفة متكاملة أصيلة مستقلة لها أركانها وقيمها ومفاهيمها - تمتص من الفاسفات المثالية كل ما يمكن جعله واقعياً وتستجيب له الإنسانية ثم تنبجه الى الفلسفات الواقعية المادية وتتفاعل معها وتتقن من أسسها وقواعدها وقوانينها كل ما يقبل الحركة والتطور ثم

تدخل عليها من التعديلات ما يفرضه عليها الواقع بتقاليده ومفاهيمه وتجاربه المتوارثة وظروفه المتغيرة وضروراته المادية وحوافزه الروحية والمعنوية .

ومما لا شك فيه أن الانسان قد يعيش في دوامه من الانفعالات والاضطرابات طالما أنه لا يفهم جوهره والسبل التي تؤدي اليه - كذلك اذا ما اتجهت الانسانية نحو تفسير الموجودات المادية فحسب فانها ولا شك ستقع في عدة تناقضات وتنتهى بها الأوضاع الى الضلال والفوضى فلا يمكن بأى حال من الأحوال أن تصبح الحياة المادية هدفاً فحسب وإنما يجب أن تقترن بالكيان الانسانى الذى هو جوهر الانسان الروحى والعاطفى ، وتنعكس عليه اصالة الفكرة الالهية فالانسان له من الوجدانات الخالدة ذات خصائص معينة ومطالب ذاتية تلزم وجود اساليب تتفق وهذه الوجدانات والاحاسيس فاصالة الفهم الاشتراكى العربى ينبع من كونه فلسفة تعبر عن النفس البشرية وتستهدف تطوير شخصيتها ووجودها تطويراً كاملاً قائماً على دراسة علمية للطبيعة البشرية وتقدير ما لها من غرائز ونزوات ومشاعر وأحاسيس ومتطلبات تستتبع هذا التكوين .

وعليه فالاشتراكية العربية لا تنشد مجرد الاسترسال فى أقوال خيالية بعيدة عن الواقع وإنما تمزج ما بين المثالية والواقع وتظهرها معاً فى بوتقة الحياة الواقعية لتخرج لنا صورة فريدة متكاملة تعيد الأمل لكل ممن قضى عليهم اليأس والجنود لأنها تؤمن بأن الحياة لا تزال قادرة على أن تبدأ من جديد من خلال المنطق والتفكير السليم الذى على أساسه يمكن التعرف على ظروف المجتمع وأوضاعه فترى ما يعوق انطلاقها وتنسق بين عوامل التقدم المتباينة حتى تتمكن من تحقيق غاياتها الانسانية ويتمكن أبناءها من الإرتقاء والإنطلاق نحو مجتمع الرفاهية والعدل

وهكذا فالاشتراكية العربية هى آخر مطاف الصراع الانسانى وما وصلت إليه الانسانية نحو تحقيق نظام أفضل وحياة كريمة .

المراجع

- ١ — الحركات الاشتراكية | تأليف هارى و. ليدلر
| ترجمة الاستاذ محمد ماهر نور
- ٢ — علم النفس | تأليف الدكتور عبد العزيز القوصى
- ٣ — الماركسية السوفياتية | تأليف هربرت ماركوز
- ٤ — علم الاجتماع | للدكتور محمد عاطف غيث
- ٥ — العلاقات الاقتصادية الدولية | للدكتور محمد لبيب شقير
- ٦ — الحرية | تأليف جون ستيوارت ميل
- ٧ — السلطة والفرد | تأليف برتراند راسل
- ٨ — قادة الفكر الاشتراكي | للدكتور جلال حسن صادق
- ٩ — تطور الملكية الفردية | للدكتور أحمد محمد غنيم

كتب ظهرت للمؤلف

- ١ - عقيدتنا الثورية بين النظرية والتطبيقية
«الدار القومية»
- ٢ - الصراع الفكري بين المادية والزوجية
«دار لوران للطباعة والنشر»



كتب تحت الطبع

- ١ - الدولة الاخلاقية
- ٢ - «المتاهة» قصة اجتماعية هادفة
- ٣ - الرجل والنمل قصص صغيرة

۲۵

الناسخ
دارلوران
للطباعة والنشر
الطبعة الاولى ١٣٤١ هـ